بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كتاب شرح عجائب القلب

وهو الكتاب الأول من ربع المهلكات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي تتحير دون إدراك جلاله القلوب والخواطر، وتدهش في مبادئ إشراق أنواره الأحداق والنواظر، المطلع على خفيات السرائر، العالم بمكنونات الضمائر، المستغني في تدبير مملكته عن المشاور والموازر، مقلب القلوب وغفار الذنوب، وستار العيوب، ومفرّج الكروب.

والصلاة على سيد المرسلين، وجامع شمل الدين، وقاطع دابر الملحدين. وعلى آله الطيبين الطاهرين، وسلم كثيرًا.

أما بعد: فشرف الإنسان وفضيلته التي فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه، التي هي في الدنيا جماله وكماله وفخره، وفي الآخرة عدّته وذخره، وإنما استعدّ للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه؛ فالقلب هو العالم بالله. وهو المتقرب إلى الله؛ وهو العامل لله، وهو الساعي إلى الله، وهو المكاشف بما عند الله ولديه، وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات، يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد واستخدام الراعي للرعية والصانع للآلة؛ فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقًا بغير الله، وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب وهو الذي يسعد بالقرب من الله فيفلح إذا زكاه، وهو الذي يخيب ويشقى إذا دنسه ودساه؛ وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى، وإنما الذي ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره، وهو العاصي المتمرّد على الله تعالى وإنما الساري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره؛ وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساوئه، إذ كل إناء ينضح بما فيه، وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه، وهو الذي إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه، وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه، ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل، إذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم، فإن الله يحول بين المرء وقلبه. وحيلولته بأن يمنعه عن مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته وكيفية تقلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن، وأنه كيف يهوي مرة إلى أسفل السافلين وينخفض إلى أفق الشياطين، وكيف يرتفع أخرى إلى أعلى عليين ويرتقي إلى عالم الملائكة المقربين. ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويترصد لما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه، فهو ممن قال الله تعالى فيه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩] فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين وأساس طريق السالكين.

وإذ فرغنا من الشطر الأوّل من هذا الكتاب من النظر فيما يجري على الجوارح من العبادات والعادات، وهو العلم الظاهر، ووعدنا أن نشرح في الشطر الثاني ما يجري على القلب من الصفات المهلكات والمنجيات، وهو العلم الباطن ؛ فلا بدّ أن نقدّم عليه كتابين: كتابًا في شرح عجائب صفات القلب وأخلاقه، وكتابًا في كيفية رياضة القلب وتهذيب أخلاقه. ثم نندفع بعد في تفصيل المهلكات والمنجيات.

فلنذكر الآن من شرح عجائب القلب بطريق ضرب الأمثال ما يقرب من الأفهام، فإنّ التصريح بعجائبه وأسراره الداخلة في جملة عالم الملكوت مما يكل عن دركه أكثر الأفهام.

بيان معنى النفس، والروح، والقلب، والعقل، وما هو المراد بهذه الأسامي

اعلم أنّ هذه الأسماء الأربعة تستعمل في هذه الأبواب. ويقل في فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامي واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها،، وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الأسامي واشتراكها بين مسميات مختلفة. ونحن نشرح في معنى هذه الأسامي ما يتعلق بغرضنا:

اللفظ الأول: لفظ القلب، وهو يطلق لمعنيين:

أحدهما: اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وهو لحم مخصوص، وفي باطنه تجويف، وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه، ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته، إذ يتعلق به غرض الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية. وهذا القلب موجود للبهائم، بل هو موجود للميت. ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نعن به ذلك؛ فإنه قطعة لحم لا قدر له، وهو من عالم الملك والشهادة إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلًا عن الآدميين.

والمعنى الثاني: هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب والمطالب. ولها علاقة مع القلب الجسماني، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته؛ فإنّ تعلقه به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة. أو تعلق المتمكن بالمكان، وشرح ذلك مما نتوقاه لمعنيين:

أحدهما: أنه متعلق بعلوم المكاشفة، وليس غرضنا من هذا الكتاب إلا علوم المعاملة.

والثاني: أن تحقيقه يستدعي إفشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله ﷺ [(١)]؛ فليس لغيره أن يتكلم فيه، والمقصود أنّا إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة، وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها في ذاتها وعلم المعاملة يفتقر إلى

(١) صحيح: حديث: أنه ﷺ لم يتكلم في الروح.

متفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود عن الروح. وفيه: فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم، فعلمت أنه لم يوحى إليه... الحديث، وقد تقدم [البخاري: ٤٧٢١، مسلم: ٢٧٩٤].

معرفة صفاتها وأحوالها ولا يفتقر إلى ذكر حقيقتها.

اللفظ الثاني: الروح، وهو أيضًا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين:

أحدهما: جنس لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني، فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن، وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها، يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت، فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت إلا ويستنير به، والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان، والروح مثالها السراج، وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه، والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى، وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب، وليس شرحه من غرضنا، إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان؛ فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين، فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلًا.

المعنى الثاني: هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان، وهو الذي شرحناه في أحد معاني القلب، وهو الذي أراده الله تعالى بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]وهو أمر عجيب رباني تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته.

اللفظ الثالث: النفس، وهو أيضًا مشترك بين معان، ويتعلق بغرضنا منه معنيان:

أحدهما: أنه يراد به المعنى الجامع لقوّة الغضب والشهوة في الإنسان على ما سيأتي شرحه، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوّف؛ لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان، فيقولون: لا بد من مجاهدة النفس وكسرها، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك»[(١)].

المعنى الثاني: هي اللطيفة التي ذكرناها التي هي الإنسان بالحقيقة، وهي نفس الإنسان وذاته، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها؛ فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة. قال الله تعالى في مثلها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨]والنفس بالمعنى الأوّل لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى؛ فإنها مبعدة عن الله، وهي من حزب الشيطان. وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوّامة؛ لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء. قال الله تعالى إخبارًا عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]وقد

---

(١) موضوع: حديث «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك». أخرجه البيهقي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين. [السلسلة الضعيفة: ١١٦٤]

يجوز أن يقال: المراد بالأمارة بالسوء: هي النفس بالمعنى الأوّل، فإذن النفس بالمعنى الأوّل مذمومة غاية الذم، وبالمعنى الثاني محمودة لأنها نفس الإنسان أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات.

اللفظ الرابع: العقل، وهو أيضًا مشترك لمعان مختلفة ذكرناها في كتاب العلم، والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان:

أحدهما: أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور، فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب.

والثاني: أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعني تلك اللطيفة. ونحن نعلم أنّ كل عالم فله في نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه، والعلم صفة حالة فيه، والصفة غير الموصوف، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم، وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعني المدرك، وهو المراد بقوله ﷺ: «أَوَّلُ ما خَلَقَ الله العَقْلُ» (١): فإنّ العلم عرض لا يتصوّر أن يكون أوّل مخلوق، بل لا بد وأن يكون المحل مخلوقًا قبله أو معه، ولأنه لا يمكن الخطاب معه. وفي الخبر: أنه قال له تعالى أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر... الحديث.

فإذن قد انكشف لك أنّ معاني هذه الأسماء موجودة: وهي القلب الجسماني، والروح الجسماني، والنفس الشهوانية، والعلوم. فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة، ومعنى خامس: وهي اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان. والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها، فالمعاني خمسة، والألفاظ أربعة، وكل لفظ أطلق لمعنيين، وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردها؛ فتراهم يتكلمون في الخواطر ويقولون: هذا خاطر العقل، وهذا خاطر الروح، وهذا خاطر القلب، وهذا خاطر النفس، وليس يدري الناظر اختلاف معاني هذه الأسماء، ولأجل كشف الغطاء عن ذلك قدّمنا شرح هذه الأسامي، وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب، فالمراد به المعنى الذي يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء، وقد يكنى عنه بالقلب الذي في الصدر، لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة، فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له ولكنها تتعلق به بواسطة القلب، فتعلقها الأوّل بالقلب وكأنه محلها ومملكتها وعالمها ومطيتها، ولذلك شبّه سهل التستري القلب بالعرش، والصدر بالكرسي فقال: القلب هو العرش والصدر هو الكرسي، ولا يظن به أنه يرى أنه عرش الله وكرسيه، فإن ذلك محال، بل أراد به أنه مملكة الإنسان والمجرى الأول لتدبيره وتصرفه، فهما بالنسبة إليه كالعرش والكرسي بالنسبة إلى الله تعالى، ولا يستقيم هذا التشبيه أيضًا إلا من بعض الوجوه، وشرح ذلك أيضًا لا يليق بغرضنا فلنجاوزه.

---

(١) **موضوع**: حديث «أول ما خلق الله العقل». وفي الخبر أنه قال له: «أقبل فأقبل وقال أدبر فأدبر... الحديث» تقدم في العلم [مشكاة المصابيح: ٥٠٦٤ (١٢)].

بيان جنود القلب:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] فللّه سبحانه في القلوب والأرواح وغيرها من العوالم جنود مجندة لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها إلا هو. ونحن الآن نشير إلى بعض جنود القلب، فهو الذي يتعلق بغرضنا. وله جندان: جند يرى بالأبصار، وجند لا يرى إلا بالبصائر، وهو في حكم الملك، والجنود في حكم الخدم والأعوان، فهذا معنى الجند: فأما جنده المشاهد بالعين فهو اليد والرجل والعين والأذن واللسان وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة، فإنّ جميعها خادمة للقلب ومسخرة له، فهو المتصرف فيها والمردد لها، وقد خلقت مجبولة على طاعته لا تستطيع له خلافًا ولا عليه تمرّدًا، فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت، وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت، وإذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم به تكلم، وكذا سائر الأعضاء. وتسخير الأعضاء والحواس للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى، فإنهم مجبولون على الطاعة لا يستطيعون له خلافًا، بل ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، وإنما يفترقان في شيء: وهو أنّ الملائكة عليهم السلام عالمة بطاعتها وامتثالها، والأجفان تطيع القلب في الانفتاح والانطباق على سبيل التسخير ولا خبر لها من نفسها ومن طاعتها للقلب، وإنما افتقر القلب إلى هذه الجنود من حيث افتقاره إلى المركب والزاد لسفره الذي لأجله خلق، وهو السفر إلى الله سبحانه وقطع المنازل إلى لقائه، فلأجله خلقت القلوب. قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وإنما مركبه البدن وزاده العلم. وإنما الأسباب التي توصله إلى الزاد وتمكنه من التزوّد منه هو العمل الصالح، وليس يمكن العبد أن يصل إلى الله سبحانه ما لم يسكن البدن ولم يجاوز الدنيا، فإنّ المنزل الأدنى لا بد من قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى، فالدنيا مزرعة الآخرة، وهي منزل من منازل الهدى، وإنما سميت دنيا: لأنها أدنى المنزلتين، فاضطرّ إلى أن يتزوّد من هذا العالم، فالبدن مركبه الذي يصل به إلى هذا العالم، فافتقر إلى تعهد البدن وحفظه، وإنما يحفظ البدن بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره، وأن يدفع عنه ما ينافيه من أسباب الهلاك، فافتقر لأجل جلب الغذاء إلى جندين: باطن، وهو الشهوة. وظاهر، وهو اليد والأعضاء الجالبة للغذاء، فخلق في القلب من الشهوات ما احتاج إليه، وخلقت الأعضاء التي هي آلات الشهوات فافتقر لأجل دفع المهلكات إلى جندين: باطن، وهو الغضب الذي به يدفع المهلكات وينتقم من الأعداء. وظاهر، وهو اليد والرجل اللتين بهما يعمل بمقتضى الغضب، وكل ذلك بأمور خارجة؛ فالجوارح من البدن كالأسلحة وغيرها، ثم المحتاج إلى الغذاء ما لم يعرف الغذاء لم تنفعه شهوة الغذاء وإلفه، فافتقر للمعرفة إلى جندين: باطن، وهو إدراك السمع والبصر والشم واللمس والذوق: وظاهر، وهو العين والأذن والأنف وغيرها. وتفصيل وجه الحاجة إليها ووجه الحكمة فيها يطول ولا تحويه مجلدات كثيرة. وقد أشرنا إلى طرف يسير منها في كتاب الشكر فليقتنع به.

فجملة جنود القلب تحصرها ثلاثة أصناف: صنف باعث ومستحث: إما إلى جلب النافع

الموافق كالشهوة، وإما إلى دفع الضارّ المنافي كالغضب، وقد يعبر عن هذا الباعث بالإرادة.

والثاني : هو المحرّك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد، ويعبر عن هذا الثاني بالقدرة: وهي جنود مبثوثة في سائر الأعضاء لا سيما العضلات منها والأوتار. والثالث: هو المدرك المتعرّف للأشياء كالجواسيس: وهي قوّة البصر والسمع والشم والذوق واللمس، وهي مبثوثة في أعضاء معينة، ويعبر عن هذا بالعلم والإدراك، ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة وهي الأعضاء المركبة من الشحم واللحم والعصب والدم والعظم التي أعدت آلات لهذه الجنود، فإنّ قوّة البطش إنما هي بالأصابع، وقوّة البصر إنما هي بالعين، وكذا سائر القوى، ولسنا نتكلم في الجنود الظاهرة أعني الأعضاء فإنها من عالم الملك والشهادة وإنما نتكلم الآن فيما أيدت به من جنود لم تروها. وهذا الصنف الثالث وهو المدرك من هذه الجملة ينقسم إلى ما قد أسكن المنازل الظاهرة وهي **الحواس الخمس** :أعني السمع والبصر والشم والذوق واللمس وإلى ما أسكن منازل باطنة: وهي تجاويف الدماغ، وهي أيضًا خمسة، فإنّ الإنسان بعد رؤية الشيء يغمض عينه فيدرك صورته في نفسه وهو الخيال، ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شيء يحفظه وهو الجند الحافظ، ثم يتفكر فيما حفظه فيركب بعض ذلك إلى البعض، ثم يتذكر ما قد نسيه ويعود إليه، ثم يجمع جملة معاني المحسوسات في خياله بالحس المشترك بين المحسوسات؛ ففي الباطن حس مشترك وتخيل وتفكر وتذكر وحفظ، ولولا خلق الله قوة الحفظ والفكر والذكر والتخيل لكان الدماغ يخلو عنه كما تخلو اليد والرجل عنه؛ فتلك القوى أيضًا جنود باطنة وأماكنها أيضًا باطنة، فهذه هي أقسام جنود القلب، وشرح ذلك بحيث يدركه فهم الضعفاء بضرب الأمثلة يطول. ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الأقوياء والفحول من العلماء، ولكنا نجتهد في تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة ليقرب ذلك من أفهامهم.

بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة:

اعلم أن جندي الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقيادًا تامًا، فيعينه ذلك على طريقه الذي يسلكه وتحسن مرافقتهما في السفر الذي هو بصدده، وقد يستعصيان عليه استعصاء بغي وتمرد حتى يملكاه ويستعبداه، وفيه هلاكه وانقطاعه عن سفره الذي به وصوله إلى سعادة الأبد، وللقلب جند آخر: وهو العلم والحكمة والتفكر، كما سيأتي شرحه، وحقه أن يستعين بهذا الجند فإنه حزب الله تعالى على الجندين الآخرين، فإنهما قد يلتحقان بحزب الشيطان. فإن ترك الاستعانة وسلط على نفسه جند الغضب والشهوة هلك يقينًا وخسر خسرانًا مبينًا، وذلك حالة أكثر الخلق، فإن عقولهم صارت مسخرة لشهواتهم في استنباط الحيل لقضاء الشهوة، وكان ينبغي أن تكون الشهوة مسخرة لعقولهم فيما يفتقر العقل إليه، ونحن نقرب ذلك إلى فهمك بثلاثة أمثلة:

المثال الأول :أن نقول: مثل نفس الإنسان في بدنه أعني بالنفس اللطيفة المذكورة كمثل ملك في مدينته ومملكته، فإن البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينتها، وجوارحها

وقواها بمنزلة الصناع والعملة، والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل. والشهوة له كالعبد السوء يجلب الطعام والميرة إلى المدينة، والغضب والحمية له كصاحب الشرطة. والعبد الجالب للميرة كذاب مكار خداع خبيث يتمثل بصورة الناصح وتحت نصحه الشر الهائل والسم القاتل، وديدنه وعادته منازعة الوزير الناصح في آرائه وتدبيراته حتى لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة، كما أن الوالي في مملكته إذا كان مستغنيًا في تدبيراته بوزيره ومستشيرًا له ومعرضًا عن إشارة هذا العبد الخبيث، مستدلًا بإشارته في أن الصواب في نقيض رأيه، أدبه صاحب شرطته وساسه لوزيره وجعله مؤتمرًا له مسلطًا من جهته على هذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره، حتى يكون العبد مسوسًا لا سائسًا، ومأمورًا مدبرًا لا أميرًا مدبرًا، استقام أمر بلده وانتظم العدل بسببه؛ فكذا النفس متى استعانت بالعقل وأدبت بحمية الغضب، وسلطتها على الشهوة، واستعانت بإحداهما على الأخرى تارة بأن تقلل مرتبة الغضب وغلوائه بمخالفة الشهوة واستدراجها، وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقبيح مقتضياتها، اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها، ومن عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال الله تعالى فيه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] ، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٦] وقال عز وجل فيمن نهى النفس عن الهوى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١] وسيأتي كيفية مجاهدة هذه الجنود وتسليط بعضها على بعض في كتاب رياضة النفس إن شاء الله تعالى.

المثال الثاني: اعلم أن البدن كالمدينة والعقل، أعني المدرك، من الإنسان كملك مدبر لها، وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأعوانه، وأعضاؤه كرعيته، والنفس الأمارة بالسوء التي هي الشهوة والغضب كعدوّ ينازعه في مملكته ويسعى في إهلاك رعيته، فصار بدنه كرباط وثغر، ونفسه كمقيم فيه مرابط، فإن هو جاهد عدوّه وهزمه وقهره على ما يحب حمد أثره إذا عاد إلى الحضرة كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥] وإن ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم أثره فانتقم منه عند الله تعالى فيقال له يوم القيامة: يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تأو الضالة ولم تجبر الكسير اليوم أنتقم منك[1] كما ورد في الخبر. وإلى هذه المجاهدة الإشارة بقوله ﷺ: «رَجَعْنا مِنَ الجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الجِهَادِ الأَكْبَرِ»[2].

---

(١) حديث: يقال يوم القيامة يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالة ولم تجبر الكسير اليوم أنتقم منك.
لم أجد له أصلا.

(٢) ضعيف: حديث «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». أخرجه البيهقي في الزهد من حديث جابر وقال: هذا إسناد فيه ضعف [ضعيف الجامع: ٤٠٨٠].

المثال الثالث : مثل العقل مثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه، فمتى كان الفارس حاذقًا وفرسه مروضًا وكلبه مؤدبًا معلمًا كان جديرًا بالنجاح، ومتى كان هو في نفسه أخرق وكان الفرس جموحًا والكلب عقورًا فلا فرسه ينبعث تحته منقادًا ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيعًا فهو خليق بأن يعطب فضلاً عن أن ينال ما طلب، وإنما خرق الفارس مثل جهل الإنسان وقلة حكمته وكلال بصيرته، وجماح الفرس مثل غلبة الشهوة خصوصًا شهوة البطن والفرج، وعقر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه. نسأل الله حسن التوفيق بلطفه.

بيان خاصية قلب الإنسان:

اعلم أن جملة ما ذكرناه قد أنعم الله به على سائر الحيوانات سوى الآدمي؛ إذ للحيوان الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة أيضًا، حتى أن الشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته بقلبها فتهرب منه، فذلك هو الإدراك الباطن.

فلنذكر ما يختص به قلب الإنسان، ولأجله عظم شرفه واستأهل القرب من الله تعالى. وهو راجع إلى علم وإرادة:

أما العلم؛ فهو العلم بالأمور الدنيوية والأخروية والحقائق العقلية، فإن هذه أمور وراء المحسوسات ولا يشاركه فيها الحيوانات، بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل إذ يحكم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يتصور أن يكون في مكانين في حالة واحدة، وهذا حكم منه على كل شخص. ومعلوم أنه لم يدرك بالحس إلا بعض الأشخاص فحكمه على جميع الأشخاص زائد على ما أدركه الحس. وإذا فهمت هذا في العلم الظاهر الضروري فهو في سائر النظريات أظهر.

وأما الإرادة؛ فإنه إذا أدرك بالعقل عاقبة الأمر وطريق الصلاح فيه انبعث من ذاته شوق إلى جهة المصلحة وإلى تعاطي أسبابها والإرادة لها، وذلك غير إرادة الشهوة وإرادة الحيوانات بل يكون على ضد الشهوة. فإن الشهوة تنفر عن الفصد والحجامة، والعقل يريدها ويطلبها ويبذل المال فيها. والشهوة تميل إلى لذائذ الأطعمة في حين المرض والعاقل يجد في نفسه زاجرًا عنها، وليس ذلك زاجر الشهوة. ولو خلق الله العقل المعرف بعواقب الأمور ولم يخلق هذا الباعث المحرك للأعضاء على مقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضائعًا على التحقيق.

فإذن قلب الإنسان اختص بعلم وإرادة ينفك عنها سائر الحيوان، بل ينفك عنها الصبي في أوّل الفطرة وإنما يحدث ذلك فيه بعد البلوغ. وأما الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة فإنها موجودة في حق الصبي. ثم الصبي في حصول هذه العلوم فيه له درجتان:

إحداهما :أن يشتمل قلبه على سائر العلوم الضرورية الأولية؛ كالعلم باستحالة المستحيلات وجواز الجائزات الظاهرة فتكون العلوم النظرية فيها غير حاصلة إلا أنها صارت ممكنة قريبة الإمكان والحصول، ويكون حاله بالإضافة إلى العلوم كحال الكاتب الذي لا يعرف من الكتابة إلا الدواة والقلم والحروف المفردة دون المركبة فإنه قد قارب الكتابة ولم

يبلغها بعد.

الثانية: أن تتحصل له العلوم المكتسبة بالتجارب والفكر فتكون كالمخزونة عنده، فإذا شاء رجع إليها وحاله حال الحاذق بالكتابة إذ يقال له كاتب وإن لم يكن مباشرًا للكتابة بقدرته عليها. وهذه هي غاية درجة الإنسانية. ولكن في هذه الدرجة مراتب لا تحصى يتفاوت الخلق فيها بكثرة المعلومات وقلتها وبشرف المعلومات وخستها وبطريق تحصيلها؛ إذ تحصل لبعض القلوب بإلهام إلهي على سبيل المبادأة والمكاشفة، ولبعضهم بتعلم واكتساب، وقد يكون سريع الحصول وقد يكون بطيء الحصول. وفي هذا المقام تتباين منازل العلماء والحكماء والأنبياء والأولياء، فدرجات الترقي فيه غير محصورة إذ معلومات الله سبحانه لا نهاية لها. وأقصى الرتب رتبة النبي الذي تنكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف، بل بكشف إلهي في أسرع وقت، وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى قربًا بالمعنى والحقيقة والصفة لا بالمكان والمسافة ومراقي هذه الدرجات هي منازل السائرين إلى الله تعالى ولا حصر لتلك المنازل، وإنما يعرف كل سالك منزله الذي بلغه في سلوكه فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل. فأما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته علمًا لكن قد يصدق به إيمانًا بالغيب، كما أنا نؤمن بالنبوة والنبي ونصدق بوجوده ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبي، وكما لا يعرف الجنين حال الطفل، ولا الطفل حال المميز وما يفتح له من العلوم الضرورية، ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية فكذلك لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر :٢] وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى غير مضنون بها على أحد، ولكن إنما تظهر في القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى كما قال ﷺ «إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ لَنَفَحَاتٍ أَلاَ فَتَعَرَّضُوا لَهَا» [(١)]، والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيته من الخبث والكدورة الحاصلة من الأخلاق المذمومة، كما سيأتي بيانه، وإلى هذا الجود الإشارة بقوله ﷺ «يَنْزِلُ الله كُلَّ لَيْلَةٍ إِلى سَمَاءِ الدُّنيَا فَيَقُول هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيب لَهُ»؟ وبقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن ربه عز وجل: «لَقَد طَالَ شَوْقُ الأَبْرَارِ إلى لِقَائي وَأَنا إلى لِقَائِهِم أَشَدُّ شَوْقًا» [(٢)]، وبقوله تعالى: «من تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا» [(٣)]، كل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبخل ومنع من جهة المنعم، تعالى عن البخل والمنع علوًّا كبيرًا، ولكن حجبت لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب، فإنّ القلوب كالأواني فما دامت ممتلئة بالماء

---

(١) ضعيف: حديث «إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها». متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وقد تقدم [ضعيف الجامع: ١٩١٧].

(٢) حديث «يقول الله عز وجل لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقائهم أشد شوقا». لم أجد له أصلا إلا أن صاحب الفردوس أخرجه من حديث أبي الدرداء ولم يذكر له ولده في مسند الفردوس إسنادا.

(٣) صحيح: حديث «يقول الله من تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا». متفق عليه من حديث أبي هريرة [البخاري: ٧٤٠٥، مسلم: ٢٦٧٥].

لا يدخلها الهواء فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى. وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «لَوْلا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاءِ» (١)، ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الإنسان العلم والحكمة.

وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله فبه كمال الإنسان وفي كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال. فالبدن مركب للنفس، والنفس محل للعلم، والعلم هو مقصود الإنسان وخاصيته التي لأجله خلق وكما أن الفرس يشارك الحمار في قوة الحمل ويختص عنه بخاصية الكرّ والفرّ وحسن الهيئة فيكون الفرس مخلوقًا لأجل تلك الخاصية، فإن تعطلت منه نزل إلى حضيض رتبة الحمار. وكذلك الإنسان يشارك الحمار والفرس في أمور ويفارقهما في أمور هي خاصيته وتلك الخاصية من صفات الملائكة المقرّبين من ربّ العالمين. والإنسان على رتبة بين البهائم والملائكة، فإن الإنسان من حيث يتغذى وينسل فنبات، ومن حيث يحس ويتحرّك بالاختيار فحيوان، ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على الحائط، وإنما خاصيته معرفة حقائق الأشياء.

فمن استعمل جميع أعضائه وقواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة، فحقيق بأن يلحق بهم وجدير بأن يسمى ملكًا وربانيًا كما أخبر الله تعالى عن صواحبات يوسف عليه السلام بقوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

ومن صرف همته إلى اتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الأنعام فقط انحط إلى حضيض أفق البهائم فيصير إما غُمْرًا كثور، وإما شرهًا كخنزير. وإما ضريًا ككلب أو سنور، أو حقودًا كجمل. أو متكبرًا كنمر. أو ذا روغان كثعلب، أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد.

وما من عضو من الأعضاء ولا حاسة من الحواس إلا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول إلى الله تعالى.

كما سيأتي بيان طرف منه في كتاب الشكر، فمن استعمله فيه فقد فاز، ومن عدل عنه فقد خسر وخاب. وجملة السعادة في ذلك أن يجعل لقاء الله تعالى مقصده، والدار الآخرة مستقرّه، والدنيا منزله، والبدن مركبه، والأعضاء خدمه. فيستقرّ هو - أعني المدرك من الإنسان - في القلب الذي هو وسط مملكته كالملك، ويجري القوّة الخيالية المودعة في مقدم الدماغ مجرى صاحب بريده إذ تجتمع أخبار المحسوسات عنده، ويجري القوة الحافظة التي مسكنها مؤخر الدماغ مجرى خازنه، ويجري اللسان مجرى ترجمانه، ويجري الأعضاء المتحركة مجرى كتابه، ويجري الحواس الخمس مجرى جواسيسه فيوكل كل واحد منها بأخبار صقع من الأصقاع؛ فيوكل العين بعالم الألوان، والسمع بعالم الأصوات، والشم بعالم الروائح. وكذلك سائرها فإنها أصحاب أخبار يلتقطونها من هذه العوالم ويؤدونها إلى القوة الخيالية التي هي

(١) حديث «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم. أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه وقد تقدم في الصيام [أحمد: ٨٤٢٦].

كصاحب البريد، ويسلمها صاحب البريد إلى الخازن وهي الحافظة، ويعرضها الخازن على الملك فيقتبس الملك منها ما يحتاج إليه في تدبير مملكته وإتمام سفره الذي هو بصدده، وقمع عدوّه الذي هو مبتلى به، ودفع قواطع الطريق عليه فإذا فعل ذلك كان موفقًا سعيدًا شاكرًا نعمة الله وإذا عطل هذه الجملة أو استعملها لكن في مراعاة أعدائه وهي الشهوة والغضب وسائر الحظوظ العاجلة، أو في عمارة طريقه دون منزله، إذ الدنيا طريقه التي عليها عبوره، ووطنه ومستقرّه الآخرة؛ كان مخذولًا شقيًا كافرًا بنعمة الله تعالى مضيعًا لجنود الله تعالى ناصرًا لأعداء الله مخذلًا لحزب الله فيستحق المقت والإبعاد في المنقلب والمعاد. نعوذ بالله من ذلك.

وإلى المثال الذي ضربناه أشار كعب الأحبار حيث قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت: الإنسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريد والقلب منه ملك[1]، فإذا طاب الملك طابت جنوده، فقالت: هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقول. وقال علي رضي الله عنه في تمثيل القلوب: إن لله تعالى في أرضه آنية وهي القلوب فأحبها إليه تعالى أرقها وأصفاها وأصلبها: ثم فسره فقال: أصلبها في الدين وأصفاها في اليقين وأرقها على الإخوان، وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥] قال أبي بن كعب رضي الله عنه: معناه مثل نور المؤمن وقلبه، وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ [النور: ٤٠] مثل قلب المنافق. وقال زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢٢] وهو قلب المؤمن. وقال سهل: مثل القلب والصدر مثل العرش والكرسي، فهذه أمثلة القلب.

بيان مجامع أوصاف القلب وأسئلته

اعلم أن الإنسان قد اصطحب في خلقته وتركيبه أربع شوائب، فلذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف وهي: الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية. فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم على الناس بالضرب والشتم. ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره، ومن حيث إنه في نفسه أمر رباني، كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] فإنه يدعي لنفسه الربوبية، ويحب الاستيلاء، والاستعلاء، والتخصص، والاستبداد بالأمور كلها، والتفرّد بالرئاسة، والانسلال عن ربقة العبودية والتواضع، ويشتهي الاطلاع على العلوم كلها؛ بل يدعي لنفسه العلم، والمعرفة والإحاطة بحقائق الأمور، ويفرح إذا نسب إلى العلم، ويحزن إذا

---

(١) ضعيف: حديث عائشة: الإنسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان.

أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي والطبراني في مسند الشاميين والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة نحوه وله ولأحمد من حديث أبي ذر: وأما الأذن فقمع وأما العين فمقرة لما يوعى القلب ولا يصح منها شيء [حديث أبي هريرة ضعيف، انظر ضعيف الجامع: ١٤٣٨].

نسب إلى الجهل. والإحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من أوصاف الربوبية، وفي الإنسان حرص على ذلك. ومن حيث يختص من البهائم بالتمييز مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريرًا يستعمل التمييز في استنباط وجوه الشر، ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخداع، ويظهر الشر في معرض الخير، وهذه أخلاق الشياطين.

وكل إنسان فيه شوب من هذه الأصول الأربعة ـ أعني الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية ـ وكل ذلك مجموع في القلب. فكأن المجموع في إهاب الإنسان: خنزير وكلب وشيطان وحكيم.

فالخنزير هو الشهوة فإنه لم يكن الخنزير مذمومًا للونه وشكله وصورته بل لجشعه وكلبه وحرصه.

والكلب هو الغضب فإنّ السبع الضاري والكلب العقور ليس كلبًا وسبعًا باعتبار الصورة واللون والشكل، بل روح معنى السبعية الضراوة والعدوان والعقر، وفي باطن الإنسان ضراوة السبع وغضبه وحرص الخنزير وشبقه. فالخنزير يدعو بالشره إلى الفحشاء والمنكر والسبع يدعو بالغضب إلى الظلم والإيذاء.

والشيطان لا يزال يهيج شهوة الخنزير وغيظ السبع ويغري أحدهما بالآخر ويحسن لهما ما هما مجبولان عليه.

والحكيم الذي هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره بأن يكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ونوره المشرق الواضح، وأن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه إذ بالغضب يكسر سورة الشهوة ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه ويجعل الكلب مقهورًا تحت سياسته، فإن فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الأمر وظهر العدل في مملكة البدن وجرى الكل على الصراط المستقيم، وإن عجز عن قهرها قهروه واستخدموه، فلا يزال في استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضي الكلب فيكون دائمًا في عبادة كلب وخنزير.

وهذا حال أكثر الناس مهما كان أكثر همتهم البطن والفرج ومنافسة الأعداء، والعجب منه أنه ينكر على عبدة الأصنام عبادتهم للحجارة، ولو كشف الغطاء عنه وكوشف بحقيقة حاله ومثل له حقيقة حاله كما يمثل للمكاشفين إما في النوم أو في اليقظة لرأى نفسه ماثلًا بين يدي خنزير ساجدًا له مرة وراكعًا أخرى ومنتظرًا لإشارته وأمره. فمهما هاج الخنزير لطلب شيء من شهواته انبعث على الفور في خدمته وإحضار شهوته، أو رأى نفسه ماثلًا بين يدي كلب عقور عابدًا له مطيعًا سامعًا لما يقتضيه ويلتمسه مدققًا بالفكر في حيل الوصول إلى طاعته وهو بذلك ساع في مسرة شيطانه فإنه الذي يهيج الخنزير ويثير الكلب ويبعثهما على استخدامه فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما فليراقب كل عبد حركاته وسكناته وسكوته ونطقه وقيامه وقعوده، ولينظر بعين البصيرة فلا يرى إن أنصف نفسه إلا ساعيًا طول النهار في عبادة هؤلاء،

وهذا غاية الظلم إذ جعل المالك مملوكًا والرب مربوبًا والسيد عبدًا والقاهر مقهورًا، إذ العقل هو المستحق للسيادة والقهر والاستيلاء وقد سخره لخدمة هؤلاء الثلاثة فلا جرم ينتشر إلى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تتراكم عليه حتى يصير طابعًا وَرَيْنًا مهلكًا للقلب ومميتًا له، أما طاعة خنزير الشهوة فتصدر منها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والحرص والجشع والملق والحسد والحقد والشماتة وغيرها. وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها إلى القلب صفة التهور والبذالة والبذخ والصلف والاستشاطة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتحقير الخلق وإرادة الشر وشهوة الظلم وغيرها. وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجرأة والتلبيس والتضريب والغش والخب والخنا وأمثالها. ولو عكس الأمر وقهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية لاستقر في القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين والإحاطة بحقائق الأشياء ومعرفة الأمور على ما هي عليه، والاستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة، واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله، ولاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب، ولانتشر إليه من ضبط خنزير الشهوة ورده إلى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدوء والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة وأمثالها، ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردها إلى حد الواجب صفة الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتمال والعفو والثبات والنبل والشهامة والوقار وغيرها.

فالقلب في حكم مرآة قد اكتنفته هذه الأمور المؤثرة فيه، وهذه الآثار على التواصل واصلة إلى القلب. أما الآثار المحمودة التي ذكرناها فإنها تزيد مرآة القلب جلاء وإشراقًا ونورًا وضياءً حتى يتلألأ فيه جلية الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين، وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ الله بِعَبْدٍ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ واعِظًا مِنْ قَلْبِهِ»[(١)]، وبقوله ﷺ: «مَنْ كَانَ لَهُ مِنْ قَلْبِهِ وَاعِظٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الله حَافِظٌ»[(٢)]، وهذا القلب هو الذي يستقرّ فيه الذكر. قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وأما الآثار المذمومة فإنها مثل دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب ولا يزال يتراكم عليه مرة بعد أخرى إلى أن يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوبًا عن الله تعالى، وهو الطبع وهو الرين قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] وقال عز وجل: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠] فربط عدم السماع بالطبع بالذنوب، كما ربط السماع بالتقوى فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟﴾ [المائدة: ١٠٨] ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

---

(١) ضعيف: حديث: إذا أراد الله بعبده خيرا جعل له واعظا من قلبه. أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة وإسناده جيد [ضعيف الجامع: ٣٣٠].

(٢) حديث «من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ». لم أجد له أصلاً.

ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلوب وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين ويستهين بأمر الآخرة ويستعظم أمر الدنيا ويصير مقصور الهم عليها. فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أذن ولم يستقر في القلب ولم يحركه إلى التوبة والتدارك أولئك الذين ﴿يَئِسُوا مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾[الممتحنة :١٣] وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب كما نطق به القرآن والسنة.

قال ميمون بن مهران: إذا أذنب العبد ذنبًا نكت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع وتاب صقل، وإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه فهو الران، وقد قال النبي ﷺ: «قَلْبُ المُؤْمِنِ أَجْرَدُ فِيهِ سِرَاجٌ يُزْهِرُ وَقَلْبُ الكَافِرِ أَسْوَدُ مَنْكُوسٌ»(١). فطاعة الله سبحانه بمخالفة الشهوات مصقلة للقلب، ومعاصيه مسودات له فمن أقبل على المعاصي أسود قلبه، ومن اتبع السيئة الحسنة ومحا أثرها لم يظلم قلبه، ولكن ينقص نوره كالمرآة التي يتنفس فيها ثم تمسح ويتنفس ثم تمسح، فإنها لا تخلو عن كدورة. وقد قال ﷺ: «القُلُوبُ أَرْبَعَةٌ قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ سِرَاجٌ يُزْهِرُ فَذلِكَ قَلْبُ المُؤْمِنِ، وَقَلْبٌ أَسْوَدُ مَنْكُوسٌ فَذلِكَ قَلْبُ الكَافِرِ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلافِهِ فَذلِكَ قَلْبُ المُنَافِقِ وَقَلْبٌ مُصَفَّحٌ فِيهِ إِيمانٌ وَنِفاقٌ»(٢)، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب. ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأي المادتين غلبت عليه حكم له بها؟ وفي رواية: ذهبت به. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف :٢٠١] فأخبر أن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر وأنه لا يتمكن منه إلا الذين اتقوا. فالتقوى باب الذكر، والذكر باب الكشف، والكشف باب الفوز الأكبر، وهو الفوز بلقاء الله تعالى.

بيان مثل القلب بالإضافة الى العلوم خاصة

اعلم أن محل العلم هو القلب؛ أعني اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح وهي المطاعة المخدومة من جميع الأعضاء، وهي بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلونات؛ فكما أن للمتلون صورة ومثال تلك الصورة ينطبع في المرآة ويحصل بها، كذلك لكل معلوم حقيقة ولتلك الحقيقة صورة تنطبع في مرآة القلب وتتضح فيها، وكما أن المرآة غير وصور الأشخاص غير وحصول مثالها في المرآة غير فهي ثلاثة أمور. فكذلك هاهنا ثلاثة أمور: القلب، وحقائق الأشياء، وحصول نفس الحقائق في القلب وحضورها فيه.

فالعالم عبارة عن القلب الذي فيه يحل مثال حقائق الأشياء، والمعلوم عبارة عن حقائق الأشياء. والعلم عبارة عن حصول المثال في المرآة.

---

(١) ضعيف: حديث «قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر .... الحديث». أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وهو بعض الحديث الذي يليه.

(٢) ضعيف: حديث «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر .... الحديث». أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد الخدري. وقد تقدم [أحمد: ١٠٧٤٥، انظر السلسلة الضعيفة: ٥١٥٨].

وكما أن القبض مثلًا يستدعي (قابضًا) كاليد (ومقبوضًا) كالسيف، ووصولًا بين السيف واليد ، بحصول السيف في اليد ، ويسمى (قبضًا)، فكذلك وصول مثال المعلوم إلى القلب يسمى علمًا، وقد كانت الحقيقة موجودة والقلب موجودًا ولم يكن العلم حاصلًا، لأن العلم عبارة عن وصول الحقيقة إلى القلب، كما أن السيف موجود واليد موجودة ولم يكن اسم القبض والأخذ حاصلًا لعدم وقوع السيف في اليد، نعم القبض عبارة عن حصول السيف بعينه في اليد والمعلوم بعينه لا يحصل في القلب، فمن علم النار لم تحصل عين النار في قلبه، ولكن الحاصل حدها وحقيقتها المطابقة لصورتها، فتمثيله بالمرآة أولى لأن عين الإنسان لا تحصل في المرآة وإنما يحصل مثال مطابق له. وكذا حصول مثال مطابق لحقيقة المعلوم في القلب يسمى علمًا.

وكما أن المرآة لا تنكشف فيها الصورة لخمسة أمور:

أحدها: نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل أن يدور ويشكل ويصقل.

والثاني: لخبثه وصدئه وكدورته وإن كان تام الشكل.

والثالث: لكونه معدولًا به عن جهة الصورة إلى غيرها كما إذا كانت الصورة وراء المرآة.

والرابع: لحجاب مرسل بين المرآة والصورة.

والخامس: للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه أن يحاذي بها شطر الصورة وجهتها.

فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن ينجلي فيها حقيقة الحق في الأمور كلها، وإنما خلت القلوب عن العلوم التي خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة:

أولها: نقصان في ذاته كقلب الصبي فإنه لا ينجلي له المعلومات لنقصانه.

والثاني: لكدورة المعاصي والخبث الذي يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه. وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «مَنْ قَارَفَ ذَنْبًا فَارَقَهُ عَقْلٌ لا يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَدًا»[1] أي حصل في قلبه كدورة لا يزول أثرها إذ غايته أن يتبعه بحسنة يمحوه بها، فلو جاء بالحسنة ولم تتقدم السيئة لازداد لا محالة إشراق القلب، فلما تقدمت السيئة سقطت فائدة الحسنة لكن عاد القلب بها إلى ما كان قبل السيئة ولم يزدد بها نورًا. فهذا خسران مبين ونقصان لا حيلة له فليست المرآة التي تتدنس ثم تمسح بالمصقلة كالتي تمسح بالمصقلة لزيادة جلائها من غير دنس سابق؟ فالإقبال على طاعة الله والإعراض عن مقتضى الشهوات هو الذي يجلو القلب، ويصفيه ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[العنكبوت: ٦٩] وقال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ الله عِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ»[2].

---

(١) حديث «من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا». لم أر له أصلا.

(٢) صحيح: حديث «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم». رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وقد

الثالث: أن يكون معدولًا به عن جهة الحقيقة المطلوبة فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافيًا فإنه ليس يتضح فيه جلية الحق لأنه ليس يطلب الحق وليس محاذيًا بمرآته شطر المطلوب، بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره إلى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلهية، فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكرًا فيها، أو مصالح المعيشة إن كان متفكرًا فيها. وإذا كان تقييد الهم بالأعمال وتفصيل الطاعات مانعًا عن انكشاف جلية الحق فما ظنك فيمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلائقها، فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقي؟.

الرابع: الحجاب فإن المطيع القاهر لشهواته المتجرد الفكر في حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوبًا عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن، فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد، وهذا أيضًا حجاب عظيم به حجب أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب، بل أكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السموات والأرض لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم وصارت حجابًا بينهم وبين درك الحقائق.

الخامس: الجهل بالجهة التي يقع منها العثور على المطلوب فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول إلا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبه حتى إذا تذكرها ورتبها في نفسه ترتيبًا مخصوصًا يعرفه العلماء بطرق الاعتبار فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فتنجلي حقيقة المطلوب لقلبه، فإن العلوم المطلوبة التي ليست فطرية لا تقتنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة، بل كل علم لا يحصل إلا عن علمين سابقين يأتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص فيحصل من ازدواجهما علم ثالث على مثال ما يحصل النتاج من ازدواج الفحل والأنثى. ثم كما أن من أراد أن يستنتج رمكة لم يمكنه ذلك من حمار وبعير وإنسان بل من أصل مخصوص من الخيل الذكر والأنثى، وذلك إذا وقع بينهما ازدواج مخصوص. فكذلك كل علم فله أصلان مخصوصان وبينهما طريق في الازدواج يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب، فالجهل بتلك الأصول وبكيفية الازدواج هو المانع من العلم. ومثاله ما ذكرناه من الجهل بالجهة التي الصورة فيها، بل مثاله أن يريد الإنسان أن يرى قفاه مثلًا بالمرآة فإنه إذا رفع المرآة بإزاء وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا فلا يظهر فيها القفا، وإن رفعها وراء القفا وحاذاه كان قد عدل بالمرآة عن عينه فلا يرى المرآة ولا صورة القفا فيها فيحتاج إلى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا، وهذه في مقابلتها بحيث يبصرها ويراعي مناسبة بين وضع

تقدم في العلم [الإيمان لابن تيمية].

المرآتين حتى تنطبع صورة القفا في المرآة المحاذية للقفا، ثم تنطبع صورة هذه المرآة في المرآة الأخرى التي في مقابلة العين، ثم تدرك العين صورة القفا، فكذلك في اقتناص العلوم طرق عجيبة فيها ازورارات وتحريفات أعجب مما ذكرناه في المرآة يعز على بسيط الأرض من يهتدي إلى كيفية الحيلة في تلك الازورارات. فهذه هي الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور. وإلا فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق لأنه أمر رباني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف. وإليه الإشارة بقوله عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢] إشارة إلى أن له خاصية تميز بها عن السموات والأرض والجبال بها صار مطيقًا لحمل أمانة الله تعالى. وتلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد وقلب كل آدمي مستعد لحمل الأمانة ومطيق لها في الأصل، ولكن يثبطه عن النهوض بأعبائها والوصول إلى تحقيقها الأسباب التي ذكرناها. ولذلك قال ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ وَإِنَّمَا أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ» (١)، وقول رسول الله ﷺ: «لَوْلا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاءِ» (٢)، إشارة إلى بعض هذه الأسباب التي هي الحجاب بين القلوب وبين الملكوت.

وإليه الإشارة بما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله، يا رسول الله أين الله في الأرض أو في السماء؟ قال: «في قلوب عباده المؤمنين» (٣)، وفي الخبر: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: لَمْ يَسَعْنِي أَرْضِي وَلا سَمَائِي وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي المُؤْمِنِ اللَّيِّنِ الوَادِعِ» (٤)، وفي الخبر: أنه قيل يا رسول الله من خير الناس؟ فقال: «كُلُّ مُؤْمِنٍ مَخْمُومُ القَلْبِ» فقيل: وما مخموم القلب؟ فقال: «هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ الَّذِي لا غِشَّ فِيهِ وَلا بَغْيَ وَلا غَدْرَ ولا غِلَّ وَلا حَسَدَ» (٥) ولذلك قال عمر رضي الله عنه:

رأى قلبي ربي. إذ كان قد رفع الحجاب بالتقوى، ومن ارتفع الحجاب بينه وبين الله تجلى صورة الملك والملكوت في قلبه فيرى جنة عرض بعضها السموات والأرض، أما جملتها فأكثر سعة من السموات والأرض لأن السموات والأرض عبارة عن عالم الملك والشهادة، وهو

---

(١) صحيح: حديث «كل مولود يولد على الفطرة .... الحديث». متفق عليه من حديث أبي هريرة [البخاري: ١٣٨٥، مسلم: ٢٦٥٨].

(٢) حديث «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم» تقدم.

(٣) حديث ابن عمر: قيل لرسول الله، يا رسول الله أين الله في الأرض أو في السماء. «قال في قلوب عباده المؤمنين». لم أجده بهذا اللفظ، وللطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني يرفعه إلى النبي ﷺ قال «إن لله آنية من أهل الأرض وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين... الحديث» فيه بقية بن الوليد وهو مدلس لكنه صرح فيه بالتحديث[حديث أبو عتبة حسنه الألباني، انظر صحيح الجامع: ٢١٦٣].

(٤) حديث «قال الله ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع». لم أر له أصلا وفي حديث أبي عتبة قبله عند الطبراني بعد قوله «وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه ألينها وأرقها».

(٥) صحيح: حديث: قيل من خير الناس؟ قال «كل مؤمن مخموم القلب .... الحديث». أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بإسناد صحيح [ابن ماجه: ٤٢١٦، انظر صحيح الترغيب: ٢٨٨٩].

وإن كان واسع الأطراف متباعد الأكناف فهو متناه على الجملة، وأما عالم الملكوت وهي الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المخصوصة بإدراك البصائر فلا نهاية له، نعم الذي يلوح للقلب منه مقدار متناه ولكنه في نفسه وبالإضافة إلى علم الله لا نهاية له. وجملة عالم الملك والملكوت إذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية، لأن الحضرة الربوبية محيطة بكل الموجودات إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله، ومملكته وعبيده من أفعاله، فما يتجلى من ذلك للقلب هي الجنة بعينها عند قوم وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق، ويكون سعة ملكه في الجنة بحسب سعة معرفته وبمقدار ما تجلى له من الله وصفاته وأفعاله. وإنما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس :٩] ومراد تزكيته حصول أنوار الإيمان فيه أعني إشراق نور المعرفة وهو المراد بقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام :١٢٥] .وبقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر :٢٢] .

نعم هذا التجلي وهذا الإيمان له ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: إيمان العوام وهو إيمان التقليد المحض.

والثانية: إيمان المتكلمين وهو ممزوج بنوع استدلال، ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام.

والثالثة: إيمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين.

ونبين لك هذه المراتب بمثال: وهو أن تصديقك بكون زيد مثلاً في الدار له ثلاث درجات.

الأولى: أن يخبرك من جربته بالصدق ولم تعرفه بالكذب ولا اتهمته في القول، فإن قلبك يسكن إليه ويطمئن بخبره بمجرد السماع، وهذا هو الإيمان بمجرد التقليد، وهو مثل إيمان العوام فإنهم لما بلغوا سن التمييز سمعوا من آبائهم وأمهاتهم وجود الله تعالى وعلمه وإرادته وقدرته وسائر صفاته وبعثة الرسل وصدقهم وما جاؤوا به، وكما سمعوا به قبلوه وثبتوا عليه واطمأنوا إليه، ولم يخطر ببالهم خلاف ما قالوه لهم لحسن ظنهم بآبائهم وأمهاتهم ومعلميهم، وهذا الإيمان سبب النجاة في الآخرة وأهله من أوائل رتب أصحاب اليمين وليسوا من المقربين لأنه ليس فيه كشف وبصيرة وانشراح صدر بنور اليقين، إذ الخطأ ممكن فيما سمع من الآحاد بل من الأعداد فيما يتعلق بالاعتقادات، فقلوب اليهود والنصارى أيضًا مطمئنة بما يسمعونه من آبائهم وأمهاتهم إلا أنهم اعتقدوا ما اعتقدوا خطأ لأنهم ألقي إليهم الخطأ، والمسلمون اعتقدوا الحق لا لاطلاعهم عليه ولكن ألقي إليهم كلمة الحق.

الرتبة الثانية: أن تسمع كلام زيد وصوته من داخل الدار ولكن من وراء جدار فتستدل به على كونه في الدار فيكون إيمانك وتصديقك ويقينك بكونه في الدار أقوى من تصديقك بمجرد السماع، فإنك إذا قيل لك إنه في الدار ثم سمعت صوته ازددت به يقينًا لأن الأصوات تدل على الشكل والصورة عند من يسمع الصوت في حال مشاهدة الصورة، فيحكم قلبه بأن

هذا صوت ذلك الشخص؛ وهذا إيمان ممزوج بدليل والخطأ أيضًا ممكن أن يتطرق إليه، إذ الصوت قد يشبه الصوت وقد يمكن التكلف بطريق المحاكاة إلا أن ذلك قد لا يخطر ببال السامع لأنه ليس يجعل للتهمة موضعًا، ولا يقدر في هذا التلبيس والمحاكاة غرضًا.

الرتبة الثالثة: أن تدخل الدار فتنظر إليه بعينك وتشاهده؛ وهذه هي المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية. وهي تشبه معرفة المقربين والصديقين، لأنهم يؤمنون عن مشاهدة فينطوي في إيمانهم إيمان العوام والمتكلمين، ويتميزون بمزية بينة يستحيل معها إمكان الخطأ. نعم وهم أيضًا يتفاوتون بمقادير العلوم وبدرجات الكشف.

أما درجات الكشف فمثاله أن يبصر زيدًا في الدار عن قرب وفي صحن الدار في وقت إشراق الشمس فيكمل له إدراكه، والآخر يدركه في بيت أو من بعد أو في وقت عشية فيتمثل له في صورته ما يستيقن معه أنه هو؛ ولكن لا يتمثل في نفسه الدقائق والخفايا من صورته. ومثل هذا متصوّر في تفاوت المشاهدة للأمور الإلهية.

وأما مقادير العلوم فهو بأن يرى في الدار زيدًا وعمرًا وبكرًا غير ذلك، وآخر لا يرى إلا زيدًا، فمعرفة ذلك تزيد بكثرة المعلومات لا محالة. فهذا حال القلب بالإضافة إلى العلوم والله تعالى أعلم بالصواب.

بيان حال القلب بالإضافة الى أقسام العلوم العقلية والدينية والدنيوية والاخروية

اعلم أن القلب بغريزته مستعد لقبول حقائق المعلومات كما سبق، ولكن العلوم التي تحل فيه تنقسم إلى عقلية وإلى شرعية. والعقلية تنقسم إلى ضرورية ومكتسبة. والمكتسبة إلى دنيوية وأخروية.

أما العقلية: فنعني بها ما تقضي بها غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والسماع؛ وهي تنقسم إلى ضرورية: لا يدري من أين حصلت وكيف حصلت؟ كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين والشيء الواحد لا يكون حادثًا قديمًا موجودًا معدومًا معًا؛ فإن هذه علوم يجد الإنسان نفسه منذ الصبا مفطورًا عليها ولا يدري متى حصل له هذا العلم ولا من أين حصل له؟ أعني أنه لا يدري له سببًا قريبًا، وإلا فليس يخفى عليه أن الله هو الذي خلقه وهداه. وإلى علوم مكتسبة: وهي المستفادة بالتعلم والاستدلال وكلا القسمين قد يسمى عقلًا.

قال علي رضي الله عنه:

رأيتُ العقلَ عقلين ... فمطبوعٌ ومسموعُ
ولا ينفع مسموعٌ ... إذا لم يكُ مطبوعُ
كما لا تنفعُ الشمس ... وضوء العينِ ممنوعُ

والأول هو المراد بقوله ﷺ لعلي: «ما خلق الله خلقًا أكرم عليه من العقل» (١)، والثاني هو المراد بقوله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «إذا تقرب الناس إلى الله تعالى بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك» (٢). إذ لا يمكن التقرب بالغريزة الفطرية ولا بالعلوم الضرورية بل بالمكتسبة. ولكن مثل علي رضي الله عنه هو الذي يقدر على التقرب باستعمال العقل في اقتناص العلوم التي بها ينال القرب من رب العالمين، فالقلب جار مجرى العين وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوّة البصر في العين، وقوة الإبصار لطيفة تفقد في العمى وتوجد في البصر وإن كان قد غمض عينيه أو جن عليه الليل، والعلم الحاصل منه في القلب جار مجرى قوّة إدراك البصر في العين ورؤيته لأعيان الأشياء. وتأخر العلوم عن عين العقل في مدّة الصبا إلى أوان التمييز أو البلوغ يضاهي تأخر الرؤية عن البصر إلى أوان إشراق الشمس وفيضان نورها على المبصرات. والقلم الذي سطر الله به العلوم على صفحات القلوب يجري مجرى قرص الشمس. وإنما لم يحصل العلم في قلب الصبي قبل التمييز لأن لوح قلبه لم يتهيأ بعد لقبول نفس العلم. والقلم عبارة عن خلق من خلق الله تعالى جعله سببًا لحصول نقش العلوم في قلوب البشر. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤-٥] وقلم الله تعالى لا يشبه قلم خلقه كما لا يشبه وصفه وصف خلقه، فليس قلمه من قصب ولا خشب، كما أنه تعالى ليس من جوهر ولا عرض؛ فالموازنة بين البصيرة الباطنة والبصر الظاهر صحيحة من هذه الوجوه إلا أنه لا مناسبة بينهما في الشرف؛ فإن البصيرة الباطنة هي عين النفس التي هي اللطيفة المدركة، وهي كالفارس والبدن كالفرس، وعمى الفارس أضر على الفارس من عمى الفرس بل لا نسبة لأحد الضررين إلى الآخر. ولموازنة البصيرة الباطنة للبصر الظاهر سماه الله تعالى باسمه فقال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: ١١] سمى إدراك الفؤاد رؤية، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] وما أراد به الرؤية الظاهرة فإن ذلك غير مخصوص بإبراهيم عليه السلام حتى يعرض في معرض الامتنان، ولذلك سمي ضد إدراكه عمى، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وقال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢] فهذا بيان العلم العقلي.

أما العلوم الدينية: فهي المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وفهم معانيهما بعد السماع، وبه كمال صفة القلب وسلامته عن الأدواء والأمراض، فالعلوم العقلية غير كافية في سلامة القلب وإن كان محتاجًا إليها، كما أن العقل غير كاف في استدامة صحة أسباب البدن بل يحتاج إلى معرفة

---

(١) حديث «ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل». أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول بإسناد ضعيف وقد تقدم في العلم.

(٢) حديث «إذا تقرب الناس إلى الله بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك». أخرجه أبو نعيم من حديث علي بإسناد ضعيف.

خواص الأدوية والعقاقير بطريق التعلم من الأطباء، إذ مجرد العقل لا يهتدى إليه ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلا بالعقل، فلا غنى بالعقل عن السماع ولا غنى بالسماع عن العقل. فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنّة مغرور، فإياك أن تكون من أحد الفريقين وكن جامعًا بين الأصلين، فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء، فكذلك أمراض القلوب لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة وهي وظائف العبادات والأعمال التي ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب، فمن لا يداوي قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية استضرّ بها كما يستضر المريض بالغذاء. وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن هو ظن صادر عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما. فيظن أنه تناقض في الدين، فيتحير به فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين.

وإنما ذلك لأن عجزه في نفسه خيل إليه نقضًا في الدين وهيهات. وإنما مثاله مثال الأعمى الذي دخل دار قوم فتعثر فيها بأواني الدار فقال لهم: ما بال هذه الأواني تركت على الطريق لم لا ترد إلى مواضعها؟ فقالوا له: تلك الأواني في مواضعها وإنما أنت لست تهتدي للطريق لعماك فالعجب منك أنك لا تحيل عثرتك على عماك وإنما تحيلها على تقصير غيرك؟ فهذه نسبة العلوم الدينية إلى العلوم العقلية.

والعلوم العقلية تنقسم إلى دنيوية وأخروية. فالدنيوية: كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات. والأخروية: كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال والعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله، كما فصلناه في كتاب العلم، وهما علمان متنافيان، أعني إن من صرف عنايته إلى أحدهما حتى تعمق فيه قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر، ولذلك ضرب علي رضي الله عنه للدنيا والآخرة ثلاثة أمثلة فقال: هما ككفتي الميزان، وكالمشرق والمغرب، وكالضرّتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى.

ولذلك ترى الأكياس في أمور الدنيا وفي علم الطب والحساب والهندسة والفلسفة جهالًا في أمور الآخرة. والأكياس في دقائق علوم الآخرة جهالًا في أكثر علوم الدنيا، لأن قوة العقل لا تفي بالأمرين جميعًا في الغالب فيكون أحدهما مانعًا من الكمال في الثاني. ولذلك قال ﷺ: «إِنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ الجَنَّةِ البُلْهُ» [1]، أي البله في أمور الدنيا.

وقال الحسن في بعض مواعظه: لقد أدركنا أقوامًا لو رأيتموهم لقلتم مجانين ولو أدركوكم لقالوا شياطين. فمهما سمعت أمرًا غريبًا من أمور الدين جحده أهل الكياسة في سائر العلوم، فلا

(١) ضعيف: حديث «أكثر أهل الجنة البله». أخرجه البزار من حديث أنس وضعفه وصححه القرطبي في التذكرة وليس كذلك فقد قال ابن عدي: إنه منكر [ضعيف الجامع: ١٠٩٦].

يغرّنك جحودهم عن قبوله إذ من المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد في المغرب، فكذلك يجري أمر الدنيا والآخرة، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ [يونس :٧] الآية. وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧] وقال عز وجل: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم :٢٩-٣٠] فالجمع بين كمال الاستبصار في مصالح الدنيا والدين لا يكاد يتيسر إلا لمن رسخه الله لتدبير عباده في معاشهم ومعادهم وهم الأنبياء المؤيدون بروح القدس المستمدون من القوة الإلهية التي تتسع لجميع الأمور ولا تضيق عنها.

فأما قلوب سائر الخلق فإنها إذا استقلت بأمر الدنيا انصرفت عن الآخرة وقصرت عن الاستكمال فيها.

بيان الفرق بين الإلهام والتعلم، والفرق بين طريق الصوفية في استكشاف الحق وطريق النظار

اعلم أن العلوم التي ليست ضرورية ـ وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال ـ تختلف الحال في حصولها فتارة تهجم على القلب كأنه ألقي فيه من حيث لا يدري، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم. فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهامًا، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارًا واستبصارًا. ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى ما لا يدري العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل؟ وإلى ما يطلع معه على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم، وهو مشاهدة الملك الملقي في القلب. والأول: يسمى إلهامًا ونفثًا في الروع. والثاني: يسمى وحيًا وتختص به الأنبياء. والأول يختص به الأولياء والأصفياء. والذي قبله ، وهو المكتسب بطريق الاستدلال ، يختص به العلماء. وحقيقة القول فيه أن القلب مستعد لأن تنجلي فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها، وإنما حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة ، التي سبق ذكرها ، فهي كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو منقوش بجميع ما قضى الله به إلى يوم القيامة. وتجلي حقائق العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها، والحجاب بين المرآتين تارة يزال باليد وأخرى يزول بهبوب الرياح تحركه.

وكذلك قد تهب رياح الألطاف وتنكشف الحجب عن أعين القلوب فينجلي فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ، ويكون ذلك تارة عند المنام فيعلم به ما يكون في المستقبل. وتمام ارتفاع الحجاب بالموت فبه ينكشف الغطاء، وينكشف أيضًا في اليقظة حتى يرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى، فيلمع في القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف، وأخرى على التوالي إلى حد ما. ودوامه في غاية الندور فلم يفارق الإلهام الاكتساب في نفس العلم ولا في محله ولا في سببه ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب، فإن ذلك ليس باختيار العبد ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك بل في

مشاهدة الملك المفيد للعلم، فإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

فإذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية. فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة، بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة.

فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب، بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى. فمن كان لله كان الله له. وزعموا أن الطريق في ذلك أولًا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه بل يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه، ثم يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب، ويجلس فارغ القلب مجموع الهم، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حديث ولا غيره، بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى، فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلًا بلسانه: الله الله على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه، ثم يصبر عليه إلى أن يمحى أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظبًا على الذكر، ثم يواظب عليه إلى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة، ويبقى معنى الكلمة مجردًا في قلبه حاضرًا فيه كأنه لازم له لا يفارقه وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحدّ واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس، وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى، بل هو بما فعله صار متعرضًا لنفحات رحمة الله فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق؛ وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همته وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا تلمع لوامع الحق في قلبه، ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت؛ ثم يعود وقد يتأخر، وإن عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفًا؛ وإن ثبت قد يطول ثباته وقد لا يطول، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق وقد يقتصر على فن واحد. ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم. وقد رجع هذا الطريق

إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء، ثم استعداد وانتظار فقط.

وأما النظار وذوو الاعتبار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه وإفضائه إلى هذا المقصد على الندور فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء، ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطئوا ثمرته واستبعدوا استجماع شروطه، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر وإن حصل في حال فثباته أبعد منه، إذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب، وقال رسول الله ﷺ: «قَلْبُ المُؤْمِنِ أَشَدُّ تَقَلُّبًا مِنَ القِدْرِ في غَلَيانِهَا» (١)، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام: «قَلْبُ المُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمنِ» (٢)، وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن، وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم نشبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن يزول وينقضي العمر قبل النجاح فيها، فكم من صوفي سلك هذا الطريق ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال، فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض. وزعموا أن ذلك يضاهي ما لو ترك الإنسان تعلم الفقه. وزعم أن النبي ﷺ لم يتعلم ذلك وصار فقيهًا بالوحي والإلهام من غير تكرير وتعليق، وأنا أيضًا ربما انتهت بي الرياضة والمواظبة إليه، ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضيع عمره، بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة رجاء العثور على كنز من الكنوز، فإن ذلك ممكن ولكنه بعيد جدًا؛ فكذلك هذا. وقالوا: لا بد أولًا من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة.

بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس

اعلم أن عجائب القلب خارجة عن مدركات الحواس، لأن القلب أيضًا خارج عن إدراك الحس وما ليس مدركًا بالحواس تضعف الأفهام عن دركه إلا بمثال محسوس. ونحن نقرّب ذلك إلى الأفهام الضعيفة بمثالين:

أحدهما: أنه لو فرضنا حوضًا محفورًا في الأرض احتمل أن يساق الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه، ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافي، فينفجر الماء من أسفل الحوض ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم وقد يكون أغزر وأكثر. فذلك القلب مثل الحوض، والعلم مثل الماء، وتكون الحواس الخمس مثال الأنهار. وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات حتى يمتلىء علمًا، ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره ورفع

---

(١) صحيح: حديث «قلب المؤمن أشد تقلبا من القدر في غليانها». أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث المقداد بن الأسود [أحمد: ٢٣٣٠٤، صحيح الجامع: ٥١٤٧].

(٢) صحيح: حديث «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن». أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمر [مسلم: ٢٦٥٤].

طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله.

فإن قلت: فكيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه؟ فاعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب ولا يسمح بذكره في علم المعاملة بل القدر الذي يمكن ذكره أن حقائق الأشياء مسطورة في اللوح المحفوظ، بل في قلوب الملائكة المقربين. فكما أن المهندس يصوّر أبنية الدار في بياض ثم يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة، فكذلك فاطر السموات والأرض كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره في اللوح المحفوظ، ثم أخرجه إلى الوجود على وفق تلك النسخة، والعالم الذي خرج إلى الوجود بصورته تتأدى منه صورة أخرى إلى الحس والخيال، فإن من ينظر إلى السماء والأرض ثم يغض بصره يرى صورة السماء والأرض في خياله حتى كأنه ينظر إليها، ولو انعدمت السماء والأرض وبقي هو في نفسه لوجد صورة السماء والأرض في نفسه كأنه يشاهدهما وينظر إليهما، ثم يتأدى من خياله أثر إلى القلب فيحصل فيه حقائق الأشياء التي دخلت في الحس والخيال. والحاصل في القلب موافق للعالم الحاصل في الخيال، والحاصل في الخيال موافق للعالم الموجود في نفسه خارجًا من خيال الإنسان وقلبه. والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة في اللوح المحفوظ.

فكأن للعالم أربع درجات في الوجود: وجود في اللوح المحفوظ وهو سابق على وجوده الجسماني، ويتبعه وجوده الحقيقي، ويتبع وجوده الحقيقي وجوده الخيالي ـ أعني وجود صورته في الخيال ـ ويتبع وجوده الخيالي وجوده العقلي ـ أعني وجود صورته في القلب ..

وبعض هذه الوجودات روحانية وبعضها جسمانية. والروحانية بعضها أشد روحانية من البعض؛ وهذا اللطف من الحكمة الإلهية، إذ جعل حدقتك على صغر حجمها بحيث تنطبع صورة العالم والسموات والأرض على اتساع أكنافها فيها، ثم يسري من وجودها في الحس وجود إلى الخيال، ثم منه وجود في القلب فإنك أبدًا لا تدرك إلا ما هو واصل إليك، فلو لم يجعل للعالم كله مثالاً في ذاتك لما كان لك خبر مما يباين ذاتك، فسبحان من دبر هذه العجائب في القلوب والأبصار ثم أعمى عن دركها القلوب والأبصار، حتى صارت قلوب أكثر الخلق جاهلة بأنفسها وبعجائبها.

ولنرجع إلى الغرض المقصود فنقول: القلب قد يتصوّر أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته تارة من الحواس وتارة من اللوح المحفوظ، كما أن العين يتصور أن يحصل فيها صورة الشمس تارة من النظر إليها وتارة من النظر إلى الماء الذي يقابل الشمس ويحكي صورتها. فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ رأى الأشياء فيه وتفجر إليه العلم منه فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض. ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات كان ذلك حجابًا له عن مطالعة اللوح المحفوظ كما أن الماء إذا اجتمع في الأنهار منع ذلك من التفجر في الأرض، وكما أن من نظر إلى الماء الذي يحكي صورة الشمس لا يكون ناظرًا إلى نفس الشمس؛ فإذن للقلب بابان: باب مفتوح إلى عالم

الملكوت وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة، وباب مفتوح إلى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة. وعالم الشهادة والملك أيضًا يحاكي عالم الملكوت نوعًا من المحاكاة.

فأما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس فلا يخفى عليك. وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت ومطالعة اللوح المحفوظ فتعلمه علمًا يقينيًا بالتأمل في عجائب الرؤيا واطلاع القلب في النوم على ما سيكون في المستقبل أو كان في الماضي من غير اقتباس من جهة الحواس. وإنما ينفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى، وقال ﷺ: «سَبَقَ المُفَرِّدُونَ» قيل: ومن هم المفردون يا رسول الله؟ قال: «المُتَنَزِّهُونَ بِذِكْرِ الله تَعَالَى وَضَعَ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَوْزَارَهُمْ فَوَرَدُوا القِيامَةَ خفافًا» ، ثم قال في وصفهم إخبارًا عن الله تعالى فقال: «ثُمَّ أُقْبِلُ بِوَجْهِي عَلَيْهِمْ أَتُرَى مَنْ وَاجَهْتُهُ بِوَجْهِي يَعْلَمُ أَحَدٌ أَيُّ شَيْءٍ أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَهُ؟ ثم قال تعالى: أَوَّلُ مَا أُعْطِيهِمْ أَنْ أَقْذِفَ النُّورَ فِي قُلُوبِهِمْ فَيُخْبِرُونَ عَنِّي كَمَا أُخْبِرُ عَنْهُمْ» [(١)]، ومدخل هذه الأخبار هو الباب الباطن فإذا الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء وبين علوم العلماء والحكماء هذا وهو أن علومهم تأتي من داخل القلب من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت، وعلم الحكمة يتأتى من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالم الملك، وعجائب عالم القلب وتردده بين عالمي الشهادة والغيب لا يمكن أن يستقصى في علم المعاملة. فهذا مثال يعلمك الفرق بين مدخل العالمين.

المثال الثاني يعرفك الفرق بين العملين، أعني عمل العلماء وعمل الأولياء: فإن العلماء يعملون في اكتساب نفس العلوم واجتلابها إلى القلب، وأولياء الصوفية يعملون في جلاء القلوب وتطهيرها وتصفيتها وتصقيلها فقط، فقد حكي أن أهل الصين وأهل الروم تباهوا بين يدي بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور فاستقر رأي الملك على أن يسلم إليهم صفة لينقش أهل الصين منها جانبًا وأهل الروم جانبًا ويرخي بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر ففعل ذلك، فجمع أهل الروم من الأصباغ الغريبة ما لا ينحصر ودخل أهل الصين من غير صبغ وأقبلوا يجلون جانبهم ويصقلونه، فلما فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين أنهم قد فرغوا أيضًا فعجب الملك من قولهم وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ؟ فقيل: وكيف فرغتم من غير صبغ فقالوا: ما عليكم ارفعوا الحجاب، فرفعوا وإذا بجانبهم يتلألأ منه عجائب الصنائع الرومية مع زيادة إشراق وبريق، إذ كان قد صار كالمرآة المجلوة لكثرة التصقيل فازداد حسن جانبهم بمزيد التصقيل؛ فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب وجلائه وتزكيته وصفائه حتى يتلألأ فيه جلية الحق بنهاية الإشراق كفعل أهل الصين، وعناية الحكماء والعلماء بالاكتساب ونقش العلوم وتحصيل نقشها في القلب كفعل أهل الروم، فكيفما كان الأمر فقلب المؤمن لا

(١) حديث «سبق المفردون قيل ومن هم؟ قال «المستهترون بذكر الله ... الحديث» [مسلم: ٢٦٧٦]. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة مقتصرا على أول الحديث وقال فيه: وما المفردون؟ قال «الذاكرون الله كثيرا والذاكرات» ورواه الحاكم بلفظ «قال الذين يستهترون بذكر الله» وقال صحيح على شرط الشيخين وزاد فيه البيهقي في الشعب «يضع الذكر عنهم أثقالهم ويأتون يوم القيامة خفافا» ورواه هكذا الطبراني في المعجم الكبير من حديث أبي الدرداء دون الزيادة التي ذكرها المصنف في آخره وكلاهما ضعيف.

يموت وعلمه عند الموت لا يمحى وصفاؤه لا يتكدّر وإليه أشار الحسن رحمة الله عليه بقوله: التراب لا يأكل محل الإيمان بل يكون وسيلة وقربة إلى الله تعالى.

وأما ما حصله من نفس العلم وما حصله من الصفاء والاستعداد لقبول نفس العلم فلا غنى به عنه ولا سعادة لأحد إلا بالعلم والمعرفة، وبعض السعادات أشرف من بعض كما أنه لا غني إلا بالمال. فصاحب الدرهم غني وصاحب الخزائن المترعة غني، وتفاوت درجات السعداء بحسب تفاوت المعرفة والإيمان كما تتفاوت درجات الأغنياء بحسب قلة المال وكثرته، فالمعارف أنوار ولا يسعى المؤمنون إلى لقاء الله تعالى إلا بأنوارهم: قال الله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢] وقد روي في الخبر: «إن بعضهم يعطى نورًا مثل الجبل وبعضهم أصغر حتى يكون آخرهم رجلًا يعطى نورًا على إبهام قدميه فيضيء مرة وينطفئ أخرى فإذا أضاء قدّم قدميه فمشى وإذا أطفئ قام، ومرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من يمر كطرف العين، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالسحاب، ومنهم من يمر كانقضاض الكواكب، ومنهم من يمر كالفرس إذا اشتد في ميدانه، والذي أعطي نورًا على إبهام قدمه يحبو حبوًا على وجهه ويديه ورجليه يجر يدًا ويعلق أخرى ويصيب جوانبه النار فلا يزال كذلك حتى يخلص»[(١)]، الحديث فبهذا يظهر تفاوت الناس في الإيمان ولو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين سوى النبيين والمرسلين لرجح. فهذا أيضًا يضاهي قول القائل: لو وزن نور الشمس بنور السرج كلها لرجح؛ فإيمان آحاد العوام نوره مثل نور السراج وبعضهم نوره كنور الشمع، وإيمان الصديقين نوره كنور القمر والنجوم، وإيمان الأنبياء كالشمس. وكما ينكشف في نور الشمس صورة الآفاق مع اتساع أقطارها ولا ينكشف في نور السراج إلا زاوية ضيقة من البيت، فكذلك تفاوت انشراح الصدر بالمعارف وانكشاف سعة الملكوت لقلوب العارفين. ولذلك جاء في الخبر: «أنه يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ونصف مثقال وربع مثقال وشعيرة وذرة»[(٢)].

كل ذلك تنبيه على تفاوت درجات الإيمان وأن هذه المقادير من الإيمان لا تمنع دخول النار، وفي مفهومه أن من إيمانه يزيد على مثقال فإنه لا يدخل النار، إذ لو دخل لأمر بإخراجه أولًا وأن من في قلبه مثقال ذرة لا يستحق الخلود في النار وإن دخلها. وكذلك قوله ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ خَيْرًا مِنْ أَلْفِ مِثْلِهِ إِلاَّ الإِنْسَانُ الْمُؤْمِنُ»[(٣)]. إشارة إلى تفضيل قلب العارف بالله تعالى

---

(١) صحيح: حديث «إن بعضهم يعطى نورا مثل الجبل وبعضهم أصغر حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نورا على إبهام قدميه ..... الحديث». أخرجه الطبراني والحاكم من حديث ابن مسعود قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين [صحيح الترغيب: ٣٥٩١].

(٢) صحيح: حديث «يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ونصف مثقال وربع مثقال وشعيرة وذرة». متفق عليه من حديث أبي سعيد وليس فيه قوله «وربع مثقال» [البخاري: ٢٢، مسلم: ١٨٤].

(٣) صحيح: حديث «ليس شيء خيرا من ألف مثله إلا الإنسان أو المؤمن». أخرجه الطبراني من حديث سلمان

الموقن فإنه خير من ألف قلب من العوام. وقد قال تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران :١٣٩] تفضيلاً للمؤمنين على المسلمين والمراد به المؤمن العارف دون المقلد. وقال عز وجل: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة :١١] فأراد ههنا بالذين آمنوا الذين صدقوا من غير علم وميزهم عن الذين أوتوا العلم. ويدل ذلك على أن اسم المؤمن يقع على المقلد وإن لم يكن تصديقه عن بصيرة وكشف.

وفسر ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة :١١] فقال يرفع الله العالم فوق المؤمن بسبعمائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، وقال ﷺ: «أَكْثَرُ أَهْلِ الجَنَّةِ البُلْهُ وَعِلِّيُّونَ لِذَوِي الأَلْبَابِ» (١)، وقال: «فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي» (٢)، وفي رواية: «كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ» فبهذه الشواهد يتضح لك تفاوت درجات أهل الجنة بحسب تفاوت قلوبهم ومعارفهم، ولهذا كان يوم القيامة يوم التغابن إذ المحروم من رحمة الله عظيم الغبن والخسران، والمحروم يرى فوق درجته درجات عظيمة فيكون نظره إليها كنظر الغني الذي يملك عشرة دراهم إلى الغني الذي يملك الأرض من المشرق إلى المغرب وكل واحد منهما غني ولكن ما أعظم الفرق بينهما وما أعظم الغبن على من يخسر حظه من ذلك ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء :٢١].

بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد

اعلم أن من انكشف له شيء ولو الشيء اليسير بطريق الإلهام والوقوع في القلب من حيث لا يدري فقد صار عارفًا بصحة الطريق، ومن لم يدرك ذلك من نفسه قط فينبغي أن يؤمن به، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جدًا، ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات:

أما الشواهد: فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت :٦٩] فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهو بطريق الكشف والإلهام. وقال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ الله عِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ وَوَفَّقَهُ فِيما يَعْمَلُ حَتَّى يَسْتَوْجِبَ الجَنَّةَ وَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِمَا يَعْلَمُ تَاهَ فِيما يَعْلَمُ وَلَمْ يُوَفَّقْ فِيمَا يَعْمَلُ حَتَّى يَسْتَوْجِبَ النَّارَ» (٣)، وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق :٢] من الإشكالات والشبه. ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

بلفظ «الإنسان» ولأحمد من حديث ابن عمر «لا نعلم شيئا خيرا من مائة مثله إلا الرجل المؤمن» وإسنادهما حسن [أحمد: ٣٧٨٣٨، السلسلة الصحيحة: ٥٤٦].

(١) حديث «أكثر أهل الجنة البله، وعليون لذوي الألباب». تقدم دون هذه الزيادة ولم أجد لهذه الزيادة أصلا.

(٢) حديث «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي». أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وصححه وقد تقدم في العلم وكذلك الرواية الثانية [الترمذي: ٢٦٨٥، صحيح الجامع: ٤٢١٣].

(٣) ضعيف: حديث «من عمل بما علم .... الحديث». تقدم في العلم دون قوله «ووفقه فيما يعمل» فلم أرها [الإيمان لابن تيمية].

[الطلاق :٣]يعلمه علمًا من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة. وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال :٢٩]قيل نورًا يفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من الشبهات، ولذلك كان يكثر ﷺ في دعائه من سؤال النور فقال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ أَعْطِنِي نُورًا وَزِدْنِي نُورًا وَاجْعَلْ لِي فِي قَلْبِي نُورًا وَفِي قَبْرِي نُورًا وَفِي سَمْعِي نُورًا وَفِي بَصَرِي نُورًا ، حَتَّى قَالَ: فِي شَعْرِي وَفِي بَشَرِي وَفِي لَحْمِي وَدَمِي وَعِظَامِي» (١)، وسئل ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر :٢٢]ما هذا الشرح؟ فقال: «هُوَ التَّوسِعَةُ إِنَّ النُّورَ إذا قُذِفَ بِهِ فِي القَلْبِ اتَّسَعَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْشَرَحَ» (٢)، وقال ﷺ لابن عباس: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ» (٣). وقال علي رضي الله عنه: ما عندنا شيء أسره النبي ﷺ إلينا إلا أن يؤتي الله تعالى عبدًا فهمًا في كتابه وليس هذا بالتعلم؟ (٤)وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة :٢٦٩]إنه الفهم في كتاب الله، وقال تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ [الأنبياء :٧٩] خص ما انكشف باسم الفهم. وكان أبو الدرداء يقول: المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق والله إنه للحق يقذفه الله في قلوبهم ويجريه على ألسنتهم. وقال بعض السلف: ظن المؤمن كهانة.

وقال ﷺ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ الله تَعَالَى» (٥)، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر :٧٥] وقوله تعالى: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة :١١٨] وروى الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال: «العِلْمُ عِلْمَانِ فَعِلْمٌ باطِنٌ فِي القَلْبِ فَذلِكَ هُوَ العِلْمُ النَّافِعُ» (٦)، وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو؟ فقال: هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى في قلوب أحبابه لم يطلع عليه ملكًا ولا بشرًا. وقد قال ﷺ: «إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مُحَدَّثِينَ وَمُعَلَّمِينَ وَمُكَلَّمِينَ وَإِنَّ عُمَرَ مِنْهُمْ» (٧)، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا

---

(١) صحيح: حديث «اللهم أعطني نورا .... الحديث». متفق عليه من حديث ابن عباس [البخاري: ٦٣١٦، مسلم: ٧٦٣].

(٢) حديث: سئل عن قوله تعالى ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر :٢٢] ... الحديث». وفي المستدرك من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم.

(٣) حديث «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل». قاله لابن عباس متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله «وعلمه التأويل» [البخاري: ١٤٣] فأخرجه بهذه الزيادة أحمد وابن حبان والحاكم وصححه وقد تقدم في العلم [أحمد: ٢٣٩٣].

(٤) صحيح: حديث علي: ما عندنا شيء أسره إلينا رسول الله ﷺ إلا أن يؤتي الله عبدا فهما في كتابه، تقدم في آداب تلاوة القرآن [ابن ماجه: ٨٨٧، صححه الشيخ الألباني في سنن ابن ماجه: ٢٦٥٨].

(٥) ضعيف: حديث «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى». أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقد تقدم [الترمذي: ٢٩٨، انظر ضعيف الجامع: ٣١٢٧].

(٦) ضعيف جدًا: حديث «العلم علمان... الحديث». تقدم في العلم [ضعيف الترغيب: ٦٩].

(٧) حديث «إن من أمتي محدثين ومكلمين وإن عمر منهم». أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة «لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر» [البخاري: ٣٤٩٦] ورواه مسلم من حديث عائشة [مسلم: ٢٣٩٨].

مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ولا نبيٍ وَلاَ مُحَدَّثٍ﴾ يعني الصديقين والمحدث هو الملهم، والملهم هو الذي انكشف له في باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجة.

والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف: وذلك علم من غير تعلم. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس :٦] خصصها بهم وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران :١٣٨] وكان أبو يزيد وغيره يقول: ليس العالم الذي يحفظ من كتاب فإذا نسي ما حفظه صار جاهلاً، إنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا حفظ ولا درس. وهذا هو العلم الرباني وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف :٦٥] مع أن كل علم من لدنه ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علمًا لدنيا بل اللدني الذي ينفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج فهذه شواهد النقل ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر.

وأما مشاهدة ذلك بالتجارب فذلك أيضًا خارج عن الحصر وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لعائشة رضي الله عنها عند موته: إنما هما أخواك وأختاك، وكانت زوجته حاملاً فولدت بنتًا فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت. **وقال عمر** رضي الله عنه في أثناء خطبته: يا سارية الجبل الجبل؛ إذ انكشف له أن العدوّ قد أشرف عليه فحذره لمعرفته ذلك، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلت على عثمان رضي الله عنه وكنت قد لقيت امرأة في طريقي فنظرت إليها شزرًا وتأملت محاسنها فقال عثمان رضي الله عنه لما دخلت: يدخل عليَّ أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه أما علمت أن زنا العينين النظر؟ لتتوبن أو لأعزرنك فقلت: أوحي بعد النبي؟ فقال: لا، ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة.

وعن أبي سعيد الخراز قال: دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيرًا عليه خرقتان، فقلت في نفسي: هذا وأشباهه كل على الناس، فناداني وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة :٢٣٥] فاستغفرت الله في سري فناداني، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى :٢٥] ثم غاب عني ولم أره.

وقال زكريا بن داود: دخل أبو العباس بن مسروق على أبي الفضل الهاشمي، وهو عليل وكان ذا عيال ولم يعرف له سبب يعيش به، قال: فلما قمت قلت في نفسي من أين يأكل هذا الرجل؟ قال: فصاح بي يا أبا العباس رد هذه الهمة الدنية فإن لله تعالى ألطافًا خفية. **وقال أحمد** النقيب: دخلت على الشبلي فقال مفتونًا: يا أحمد. فقلت: ما الخبر؟ قال: كنت جالسًا فجرى بخاطري أنك بخيل، فقلت: ما أنا بخيل، فعاد مني خاطري وقال: بل أنت بخيل، فقلت: ما فتح اليوم علي بشيء إلا دفعته إلى أول فقير يلقاني، قال: فما استتم الخاطر حتى دخل عليَّ صاحب لمؤنس الخادم ومعه خمسون دينارًا فقال: اجعلها في مصالحك، قال: وقمت فأخذتها

وخرجت وإذا بفقير مكفوف بين يدي مزين يحلق رأسه فتقدمت إليه وناولته الدنانير، فقال: أعطها المزين، فقلت: إن جملتها كذا وكذا، قال: أوليس قد قلنا لك إنك بخيل؟ قال: فناولتها المزين فقال المزين: قد عقدنا لما جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا نأخذ عليه أجرًا، قال: فرميت بها في دجلة وقلت ما أعزك أحد إلا أذله الله عز وجل. وقال حمزة بن عبد الله العلوي: دخلت على أبي الخير النيناني واعتقدت في نفسي أن أسلم عليه ولا آكل في داره طعامًا، فلما خرجت من عنده إذا به قد لحقني وقد حمل طبقًا فيه طعام وقال: يا فتى كُلْ فقد خرجت الساعة من اعتقادك، وكان أبو الخير النيناني هذا مشهورًا بالكرامات وقال إبراهيم الرقي: قصدته مسلمًا عليه فحضرت صلاة المغرب فلم يكد يقرأ الفاتحة مستويًا فقلت في نفسي: ضاعت سفرتي فلما سلم خرجت إلى الطهارة فقصدني سبع فعدت إلى أبي الخير وقلت: قصدني سبع، فخرج وصاح به وقال: ألم أقل لك لا تتعرض لضيفاني فتنحى الأسد فتطهرت فلما رجعت قال لي: اشتغلتم بتقويم الظاهر فخفتم الأسد، واشتغلنا بتقويم البواطن فخافنا الأسد.

وما حكي من تفرس المشايخ وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم يخرج عن الحصر، بل ما حكي عنهم من مشاهدة الخضر عليه السلام والسؤال منه، ومن سماع صوت الهاتف، ومن فنون الكرامات خارج عن الحصر والحكاية لا تنفع الجاحد ما لم يشاهد ذلك من نفسه، ومن أنكر الأصل أنكر التفصيل والدليل القاطع الذي لا يقدر أحد جحده أمران.

أحدهما: عجائب الرؤيا الصادقة فإنه ينكشف بها الغيب وإذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل أيضًا في اليقظة فلم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسوسات فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه

والثاني: إخبار رسول الله ﷺ عن الغيب وأمور في المستقبل كما اشتمل عليه القرآن وإذا جاز ذلك للنبي ﷺ جاز لغيره إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل بإصلاح الخلق، وهذا لا يسمى نبيًا بل يسمى وليًا، فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بأن القلب له بابان:

باب إلى خارج وهو الحواس، وباب إلى الملكوت من داخل القلب وهو باب الإلهام والنفث في الروع والوحي، فإذا أقر بهما جميعًا لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة، بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلًا إليه فهذا ما ينبه على حقيقة ما ذكرناه من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت، وأما السبب في انكشاف الأمر في المنام بالمثال المحوج إلى التعبير وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة فذلك أيضًا من أسرار عجائب القلب، ولا يليق ذلك إلا بعلم المكاشفة فلنقتصر على ما ذكرناه فإنه كاف للاستحثاث على المجاهدة وطلب الكشف منها. فقد قال بعض المكاشفين: ظهر لي الملك فسألني أملي عليه شيئًا من ذكري الخفي عن مشاهدتي من التوحيد وقال: ما نكتب لك عملًا

ونحن نحب أن نصعد لك بعمل تتقرب به إلى الله عز وجل فقلت: ألستما تكتبان الفرائض؟ قالا: بلى، قلت: فيكفيكما ذلك. وهذه إشارة إلى أن الكرام الكاتبين لا يطلعون على أسرار القلب وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة. وقال بعض العارفين: سألت بعض الأبدال عن مسألة من مشاهدة اليقين فالتفت إلى شماله فقال: ما تقول رحمك الله؟ ثم التفت إلى يمينه فقال: ما تقول رحمك الله؟ ثم أطرق إلى صدره وقال: ما تقول رحمك الله؟ ثم أجاب بأغرب جواب سمعته فسألته عن التفاته فقال: لم يكن عندي في المسألة جواب عتيد، فسألت صاحب الشمال فقال: لا أدري فسألت صاحب اليمين وهو أعلم منه فقال لا أدري، فنظرت إلى قلبي وسألته فحدثني بما أجبتك فإذا هو أعلم منهما. وكأن هذا هو معنى قوله عليه السلام: «إنَّ فِي أُمَّتِي مُحَدَّثِينَ وإنَّ عُمَرَ مِنْهُمْ» .

وفي الأثر : إن الله تعالى يقول: أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكري توليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه. وقال أبو سليمان الداراني رحمة الله عليه: القلب بمنزلة القبة المضروبة حولها أبواب مغلقة فأي باب فتح له عمل فيه؟ فقد ظهر انفتاح باب من أبواب القلب إلى جهة الملكوت والملأ الأعلى، وينفتح ذلك الباب بالمجاهدة والورع والإعراض عن شهوات الدنيا. ولذلك كتب عمر رضي الله عنه إلى أمراء الأجناد: احفظوا ما تسمعون من المطيعين فإنهم ينجلي لهم أمور صادقة. وقال بعض العلماء: يد الله على أفواه الحكماء لا ينطقون إلا بما هيأ الله لهم من الحق. وقال آخر: لو شئت لقلت إن الله تعالى يطلع الخاشعين على بعض سره.

بيان تسلط الشيطان على القلب بالوساوس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها

اعلم أن القلب كما ذكرناه مثال قبة مضروبة لها أبواب تنصب إليه الأحوال من كل باب، ومثاله أيضًا مثال هدف تنصب إليه السهام من الجوانب، أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولا تخلو عنها، أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه. وإنما مداخل هذه الآثار المتجددة في القلب في كل حال؛ أما من الظاهر فالحواس الخمس، وأما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان؛ فإنه إذا أدرك بالحواس شيئًا حصل منه أثر في القلب، وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلًا بسبب كثرة الأكل وبسبب قوة في المزاج حصل منها في القلب أثر وإن كف عن الإحساس فالخيالات الحاصلة في النفس تبقى وينتقل الخيال من شيء إلى شيء، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر.

والمقصود أن القلب في التغير والتأثر دائمًا من هذه الأسباب. وأخص الآثار الحاصلة في القلب هي الخواطر؛ وأعني بالخواطر ما يحصل فيه من الأفكار، والأذكار، وأعني به إدراكاته علومًا إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر فإنها تسمى خواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلًا عنها. والخواطر هي المحركات للإرادات فإن النية والعزم والإرادة إنما

تكون بعد خطور المنوى بالبال لا محالة، فمبدأ الأفعال الخواطر، ثم الخاطر يحرك الرغبة، والرغبة تحرك العزم، والعزم يحرك النية، والنية تحرك الأعضاء.

والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر أعني إلى ما يضر في العاقبة، وإلى ما يدعو إلى الخير أعني إلى ما ينفع في الدار الآخرة. فهما خاطران مختلفان فافتقرا إلى اسمين مختلفين، فالخاطر المحمود يسمى إلهامًا، والخاطر المذموم أعني الداعي إلى الشر يسمى وسواسًا، ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة، ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث. ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب هذا ما عرف من سنَّة الله تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب. فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه واسود بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة.

وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان: فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكًا، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطانًا، واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقًا، والذي به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلانًا، فإن المعاني المختلفة تفتقر إلى أسامي مختلفة والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه إفاضة الخير وإفادة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف، وقد خلقه وسخره لذلك، والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء؛ والتخويف عند الهم بالخير بالفقر. فالوسوسة في مقابلة الإلهام، والشيطان في مقابلة الملك، والتوفيق في مقابلة الخذلان. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] فإن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فإنه فرد لا مقابل له بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها. فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك. وقد قال ﷺ «فِي القَلْبِ لَمَّتَانِ لَمَّةٌ مِنَ المَلَكِ إِيعادٌ بِالخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالحَقِّ فَمَنْ وَجَدَ ذلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَلْيَحْمَدِ الله، وَلَمَّةٌ مِنَ العَدُوِّ إِيعادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالحَقِّ وَنَهْيٌ عَنِ الخَيْرِ فَمَنْ وَجَدَ ذلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بالله مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] الآية»[1]. وقال الحسن إنما هما همان يجولان في القلب همٌّ من الله تعالى وهمٌّ من العدوّ، فرحم الله عبدًا وقف عند همه فما كان من الله تعالى أمضاه وما كان من عدوه جاهده.

ولتجاذب القلب بين هذين المسلطين قال رسول الله ﷺ: «قَلْبُ المُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمنِ»[2]، فالله يتعالى عن أن يكون له أصبع مركبة من لحم ودم وعصب منقسمة بالأنامل ولكن روح الأصبع سرعة التقليب والقدرة على التحريك والتغيير، فإنك لا تريد

---

(١) ضعيف: حديث «في القلب لَمّتان؛ لمّة من الملك: إيعاد بالخير ... الحديث». أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي في الكبرى من حديث ابن مسعود [الترمذي: ٢٩٨٨، ضعيف الجامع: ١٩٦٣].

(٢) حديث «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن». تقدم.

أصبعك لشخصه بل لفعله في التقليب والترديد كما أنك تتعاطى الأفعال بأصابعك. والله تعالى يفعل ما يفعل باستسخار الملك والشيطان وهما مسخران بقدرته في تقليب القلوب، كما أن أصابعك مسخرة لك في تقليب الأجسام مثلاً.

والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحًا متساويًا ليس يترجح أحدهما على الآخر، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها، فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عش الشيطان ومعدنه لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم ولما كان لا يخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن الهوى لا جرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة. ولذلك قال ﷺ: «ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاّ وَلَه شَيْطَانٌ» قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وَأَنَا إلاَّ أَنَّ الله أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلا يَأْمُرُ إلاّ بِخَيْرٍ» (١)، وإنما كان هذا لأن الشيطان لا يتصرف إلا بواسطة الشهوة فمن أعانه الله على شهوته حتى صارت لا تنبسط إلا حيث ينبغي وإلى الحدّ الذي ينبغي فشهوته لا تدعو إلى الشر فالشيطان المتدّرع بها لا يأمر إلا بالخير.

ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالاً فوسوس. ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك وألهم. والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن، ويكون اجتياز الثاني اختلاسًا. وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها فامتلأت بالوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة واطراح الآخرة. ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات والهوى.

ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب عن قوت الشيطان وهو الهوى والشهوات وعمارته بذكر الله تعالى الذي هو مطرح أثر الملائكة. وقال جابر بن عبيدة العدوي: شكوت إلى العلاء بن زياد ما أجد في صدري من الوسوسة فقال: إنما مثل ذلك مثل البيت الذي يمر به اللصوص فإن كان فيه شيء عالجوه وإلا مضوا وتركوه. يعني أن القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشيطان. ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر :٤٢] فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله ولذلك سلط الله عليه الشيطان. وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية :٢٣] وهو إشارة إلى أن من الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله. ولذلك قال عمرو بن العاص للنبي ﷺ: «يا رسول الله حال الشيطان بيني وبين صلاتي وقراءتي فقال: «ذلِكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ فَإذا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِالله مِنْهُ وَاتْفُلْ عَلَى

(١) صحيح: حديث «ما منكم من أحد إلا وله شيطان .... الحديث». أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود [مسلم: ٢٨١٤].

يَسَارِكَ ثلاثًا» قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني» (١).

وفي الخبر: «إن للوضوء شيطانًا يقال له الولهان فاستعيذوا بالله منه» (٢)، ولا يمحو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ما سوى ما يوسوس به، لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء انعدم منه ما كان فيه من قبل، ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق به فيجوز أيضًا أن يكون مجالًا للشيطان، وذكر الله هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال. ولا يعالج الشيء إلا بضدّه وضدّ جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبرئ عن الحول والقوّة، وهو معنى قولك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم. وذلك لا يقدر عليه إلا المتقون الغالب عليهم ذكر الله تعالى، وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] وقال مجاهد في معنى قول الله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤] قال: هو منبسط على القلب؛ فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض، وإذا غفل انبسط على قلبه. فالتطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام وبين الليل والنهار، ولتضادهما قال الله تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩]

وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ واضِعٌ خُرْطُومَهُ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ فَإِنْ هُوَ ذَكَرَ الله تَعَالَى خَنَسَ وَإِنْ نَسِيَ الله تَعَالَى الْتَقَمَ قَلْبَهُ» (٣)، وقال ابن وضاح في حديث ذكره: إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان وجهه بيده وقال: بأبي وجه من لا يفلح (٤).

وكما أنّ الشهوات ممتزجة بلحم ابن آدم ودمه فسلطنة الشيطان أيضًا سارية في لحمه ودمه ومحيطة بالقلب من جوانبه ولذلك قال ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ فَضَيِّقُوا مَجَارِيَهُ بِالجُوعِ» (٥). وذلك لأنّ الجوع يكسر الشهوة ومجرى الشيطان الشهوات. ولأجل اكتناف الشهوات للقلب من جوانبه قال الله تعالى إخبارًا عن إبليس:

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧] وقال ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بِطُرُقٍ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلامِ فَقَالَ:

---

(١) **صحيح**: حديث ابن أبي العاص: إن الشيطان حال بيني وبين صلاتي .... الحديث». أخرجه مسلم من حديث ابن أبي العاص [مسلم: ٢٢٠٣].

(٢) **ضعيف**: حديث «إن للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاستعيذوا بالله منه». أخرجه ابن ماجه والترمذي من حديث أبي بن كعب وقال غريب وليس إسناده بالقوي عند أهل الحديث [الترمذي: ٥٧، ضعيف الجامع: ١٩٧٠].

(٣) حديث أنس «إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم.... الحديث». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب مكايد الشيطان وأبو يعلى الموصلي وابن عدي في الكامل وضعفه.

(٤) حديث ابن وضاح «إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان بيده وجهه وقال: بأبي وجه من لا يفلح». لم أجد له أصلا.

(٥) حديث «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم». تقدم.

أَتُسْلِمُ وَتَتْرُكُ دِينَكَ وَدِينَ آبائِكَ؟ فَعَصَاهُ وَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الهِجْرَةِ فَقَالَ: أَتُهَاجِرُ أَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟ فَعَصَاهُ وَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الجِهَادِ فَقَالَ: أَتُجَاهِدُ وَهُوَ تَلَفُ النَّفْسِ وَالمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ نِسَاؤُكَ وَيُقْسَمُ مَالُكَ، فَعَصَاهُ وَجَاهَدَ» (١)، وقال رسول الله ﷺ: «فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَمَاتَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ» فذكر رسول الله ﷺ معنى الوسوسة وهي هذه الخواطر التي تخطر للمجاهد أنه يقتل وتنكح نساؤه وغير ذلك مما يصرفه عن الجهاد وهذه الخواطر معلومة. فإذًا الوسواس معلوم بالمشاهدة وكل خاطر فله سبب ويفتقر إلى اسم يعرفه فاسم سببه الشيطان ولا يتصوّر أن ينفك عنه آدمي وإنما يختلفون بعصيانه ومتابعته، ولذلك قال عليه السلام: «ما مِنْ أَحَدٍ إلاّ وَلَهُ شَيْطانٌ» (٢).

فقد اتضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة والإلهام والملك والشيطان والتوفيق والخذلان فبعد هذا نظر من ينظر في ذات الشيطان أنه جسم لطيف أو ليس بجسم. وإن كان جسمًا فكيف يدخل بدن الإنسان ما هو جسم؟ فهذا الآن غير محتاج إليه في علم المعاملة. بل مثال الباحث عن هذا مثال من دخلت في ثيابه حية وهو محتاج إلى إزالتها ودفع ضررها فاشتغل بالبحث عن لونها وشكلها وطولها وعرضها وذلك عين الجهل فمصادمة الخواطر الباعثة على الشر قد علمت ودل ذلك على أنه عن سبب لا محالة، وعلم أنّ الداعي إلى الشر المحذور في المستقبل عدوّ فقد عرف العدوّ لا محالة، فينبغي أن يشتغل بمجاهدته وقد عرف الله سبحانه عداوته في مواضع كثيرة من كتابه ليؤمن به ويحترز عنه فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠] فينبغي للعبد أن يشتغل بدفع العدوّ عن نفسه لا بالسؤال عن أصله ونسبه ومسكنه. نعم ينبغي أن يسأل عن سلاحه ليدفعه عن نفسه وسلاح الشيطان الهوى والشهوات وذلك كاف للعالمين.

فأما معرفة ذاته وصفاته وحقيقته ـ نعوذ بالله منه ـ وحقيقة الملائكة فذلك ميدان العارفين المتغلغلين في علوم المكاشفات فلا يحتاج في علم المعاملة إلى معرفته. نعم ينبغي أن يعلم أن الخواطر تنقسم إلى ما يعلم قطعًا أنه داع إلى الشر فلا يخفى كونه وسوسة، وإلى ما يعلم أنه داع إلى الخير فلا يشك في كونه إلهامًا، وإلى ما يتردد فيه فلا يدري أنه من لمة الملك أو من لمة الشيطان؟ فإن من مكائد الشيطان أن يعرض الشر في معرض الخير، والتمييز في ذلك غامض وأكثر العباد به يهلكون، فإن الشيطان لا يقدر على دعائهم إلى الشر الصريح فيصوّر الشر بصورة الخير، كما يقول للعالم بطريق الوعظ: أما تنظر إلى الخلق وهم موتى من الجهل هلكى من الغفلة قد أشرفوا على النار؟ أما لك رحمة على عباد الله تنقذهم من المعاطب بنصحك ووعظك

---

(١) صحيح: حديث «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرق .... الحديث». أخرجه النسائي من حديث سبرة بن أبي فاكه بإسناد صحيح [النسائي: ٦/ ٢١، صحيح الترغيب: ١٢٩٩].

(٢) حديث «ما من أحد إلا وله شيطان». تقدم.

وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ولسان ذلق ولهجة مقبولة؟ فكيف تكفر نعمة الله تعالى وتتعرض لسخطه وتسكت عن إشاعة العلم ودعوة الخلق إلى الصراط المستقيم؟ وهو لا يزال يقرّر ذلك في نفسه ويستجره بلطيف الحيل إلى أن يشتغل بوعظ الناس، ثم يدعوه بعد ذلك إلى أن يتزين لهم ويتصنع بتحسين اللفظ وإظهار الخير ويقول له: إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلوبهم ولم يهتدوا إلى الحق ولا يزال يقرّر ذلك عنده وهو في أثنائه يؤكد فيه شوائب الرياء وقبول الخلق ولذة الجاه والتعزز بكثرة الأتباع والعلم والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار فيستدرج المسكين بالنصح إلى الهلاك؛ فيتكلم وهو يظن أن قصده الخير وإنما قصده الجاه والقبول، فيهلك بسببه وهو يظن أنه عند الله بمكان وهو من الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لَيُؤَيِّدُ هذا الدِّينَ بِقَوْمٍ لا خَلاقَ لَهُمْ» (١)، و «إنَّ الله لَيُؤَيِّدُ هذا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ» (٢)، ولذلك روي أن إبليس لعنه الله تمثل لعيسى ابن مريم عليه السلام فقال له: قل لا إله إلا الله. فقال: كلمة حق ولا أقولها بقولك. لأن له أيضًا تحت الخير تلبيسات، وتلبيسات الشيطان من هذا الجنس لا تتناهى وبها يهلك العلماء والعباد والزهاد والفقراء والأغنياء وأصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشر ولا يرضون لأنفسهم الخوض في المعاصي المكشوفة.

وسنذكر جملة من مكائد الشيطان في كتاب الغرور في آخر هذا الربع. ولعلنا إن أمهل الزمان صنفنا فيه كتابًا على الخصوص نسميه (تلبيس إبليس) فإنه قد انتشر الآن تلبيسه في البلاد والعباد لاسيما في المذاهب والاعتقادات، حتى لم يبق من الخيرات إلا رسمها. كل ذلك إذعانًا لتلبيسات الشيطان ومكائده.

فحق على العبد أن يقف عند كل هم يخطر له ليعلم أنه من لمة الملك أو لمة الشيطان وأن يمعن النظر فيه بعين البصيرة لا بهوى من الطبع، ولا يطلع عليه إلا بنور التقوى والبصيرة وغزارة العلم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾ أي رجعوا إلى نور العلم: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]أي ينكشف لهم الإشكال فأما من لم يرض نفسه بالتقوى فيميل طبعه إلى الإذعان بتلبيسه بمتابعة الهوى فيكثر فيه غلطه ويتعجل فيه هلاكه وهو لا يشعر. وفي مثلهم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]قيل هي أعمال ظنوها حسنات فإذا هي سيئات. وأغمض أنواع علوم المعاملة الوقوف على خدع النفس ومكائد الشيطان وذلك فرض عين على كل عبد وقد أهمله الخلق واشتغلوا بعلوم تستجر إليهم الوساوس وتسلط عليهم الشيطان وتنسيهم عداوته وطريق الاحتراز عنه. ولا ينجى من كثرة الوسواس إلا سدّ أبواب الخواطر.

وأبوابها الحواس الخمس، وأبوابها من داخل الشهوات وعلائق الدنيا. والخلوة في بيت

---

(١) صحيح: حديث «إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم». أخرجه النسائي من حديث أنس بإسناد جيد [صحيح الجامع: ١٨٦٦].

(٢) حديث «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر». متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم في العلم.

مظلم تسد باب الحواس. والتجرّد عن الأهل والمال يقلل مداخل الوسواس من الباطن ويبقى مع ذلك مداخل باطنة في التخيلات الجارية في القلب وذلك لا يدفع إلا بشغل القلب بذكر الله تعالى، ثم إنه لا يزال يجاذب القلب وينازعه ويلهيه عن ذكر الله تعالى فلا بدّ محاهدته، وهذه مجاهدة لا آخر لها إلا الموت إذ لا يتخلص أحد من الشيطان ما دام حيًا. د يقوى بحيث لا ينقاد له ويدفع عن نفسه شره بالجهاد، ولكن لا يستغني قط عن الجها افعة ما دام الدم يجري في بدنه. فإنه ما دام حيًا فأبواب الشيطان مفتوحة إلى قلبه لا تنغلق هى لشهوة والغضب والحسد والطمع والشره وغيرها ، كما سيأتي شرحها ، ومهما كا لبا مفتوحًا والعدوّ غير غافل لم يدفع إلا بالحراسة والمجاهدة.

قال رجل للحسن: يا أبا سعيد أينام الشيطان؟ فتبسم وقال: لو نام لاسرحنا فإذن لا خلاص للمؤمن منه. نعم له سبيل إلى دفعه وتضعيف قوّته. قال ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْضِي شَيْطَانَهُ كَمَا يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي سَفَرِهِ»[1]، وقال ابن مسعود: شيطان المؤمن مهزول.

وقال قيس بن الحجاج: قال لي شيطاني، دخلت فيك وأنا مثل الجزور وأنا الآن مثل العصفور، قلت: ولم ذاك؟ قال: تذيبني بذكر الله تعالى. فأهل التقوى لا يتعذر عليهم سدّ أبواب الشيطان وحفظها بالحراسة، أعني الأبواب الظاهرة والطرق الجلية التي تفضي إلى المعاصي الظاهرة، وإنما يتعثرون في طرقه الغامضة فإنهم لا يهتدون إليها فيحرسونها كما أشرنا إليه في غرور العلماء والوعاظ. والمشكل أن الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطان كثيرة وباب الملائكة باب واحد، وقد التبس ذلك الباب الواحد بهذه الأبواب الكثيرة فالعبد فيها كالمسافر الذي يبقى في بادية كثيرة الطرق غامضة المسالك في ليلة مظلمة فلا يكاد يعلم الطريق إلا بعين بصيرة وطلوع شمس مشرقة. والعين البصيرة ههنا هي القلب المصفى بالتقوى. والشمس المشرقة هو العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ مما يهدي إلى غوامض طرقه، وإلا فطرقه كثيرة وغامضة. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: خط لنا رسول الله ﷺ يومًا خطًا وقال: «هذا سبيل الله» ثم خط خطوطًا عن يمين الخط وعن شماله ثم قال: «هٰذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْها شَيْطانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ» ثم تلا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾[الأنعام:١٥٣] لتلك الخطوط[2] فبين ﷺ كثرة طرقه.

---

(١) **ضعيف:** حديث «إن المؤمن ينضي شيطانه .... الحديث». أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة وفيه ابن لهيعة [أحمد: ٨٧١٧، ضعيف الجامع: ١٧٧٢].

[الشرح من النهاية:

فيه «إن المؤمن لَيُنْضِي شيطانَه كما يُنْضِي أحدُكم بعيرَه» أي يُهْزِله، ويَجْعله نِضْوا. والنِضْو: الدابة التي أهْزَلَتْها الأسفار، وأذْهَبَت لَحْمَها. • ومنه حديث علي «كلمات لو رَحَلْتُم فيهنَّ المَطِيَّ لأَنْضَيْتُموهنّ».

وحديث ابن عبد العزيز «أنْضَيتم الظَّهر» أي أهْزَلْتُموه.]

(٢) **صحيح:** حديث ابن مسعود: خط لنا رسول الله ﷺ خطا فقال «هذا سبيل الله .... الحديث». أخرجه النسائي في الكبرى والحاكم وقال: صحيح الإسناد [الترمذي: ٢٤٥٤، صححه الألباني في سنن الترمذي].

وقد ذكرنا مثالاً للطريق الغامض من طرقه وهو الذي يخدع به العلماء والعباد المالكين لشهواتهم الكافين عن المعاصي الظاهرة، فلنذكر مثالاً لطريقه الواضح الذي لا يخفى إلا أن يضطر الآدمي إلى سلوكه.

وذلك كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «كانَ رَاهِبٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَعَمِدَ الشَّيْطانُ إِلَى جَارِيَةٍ فَعَشِقَها وَأَلْقَى فِي قُلُوبِ أَهْلِها أَنَّ دَوَاءَها عِنْدَ الرَّاهِبِ، فَأَتَوْا بِها إِلَيْهِ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَها فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حتَّى قَبِلَها، فَلَمَّا كَانَتْ عِنْدَهُ لِيُعَالِجَها أتاهُ الشَّيْطَانُ فَزَيَّنَ لَهُ مُقَارَبَتَهَا وَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى وَاقَعَها فَحَمَلَتْ مِنْهُ، فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ وَقالَ: الآنَ تُفْتَضَحُ يَأْتِيكَ أَهْلُها فَاقْتُلْها فَإِنْ سَأَلُوكَ فَقُلْ مَاتَتْ، فَقَتَلَها وَدَفَنَها، فَأَتَى الشَّيْطان أَهْلَها فَوَسْوَسَ إِلَيْهِمْ وَأَلْقَى فِي قُلُوبِهِم أَنَّهُ أَحْبَلَها ثُمَّ قَتَلَها وَدَفَنَها، فَأَتَاهُ أَهْلُها فَسَأَلُوهُ عَنْهَا فَقَالَ: ماتَتْ، فَأَخَذُوهُ لِيَقْتُلُوهُ بِها فَأَتَاهُ الشَّيْطَانُ فَقَالَ: أَنَا الَّذِي خَنَقْتُها وَأَنَا الَّذِى أَلْقَيْتُ فِي قُلُوبِ أَهْلِها فَأَطِعْنِي تَنْجُ وَأُخَلِّصْكَ مِنْهُمْ قَالَ: بِمَاذا؟ قالَ: اسْجُدْ لِي سَجْدَتَيْن؛ فَسَجَدَ لَهُ سَجْدَتَيْنِ فَقَالَ لَهُ الشَّيْطَانُ: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ. فَهُوَ الَّذِي قَالَ الله تَعَالَى فِيهِ: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: ١٦][1] فانظر لآن إلى حيله واضطراره الراهب إلى هذه الكبائر، وكل ذلك لطاعته له في قبول الجارية للمعالجة وهو أمر هين وربما يظن صاحبه أنه خير وحسنة فيحسن ذلك في قلبه بخفي الهوى فيقد عليه كالراغب في الخير فيخرج الأمر بعد ذلك عن اختياره ويجرّه البعض إلى البعض بحيث لا يجد محيصًا: فنعوذ بالله من تضييع أوائل الأمور وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «مَنْ حَامَ حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ»[2].

بيان تفصيل مداخل الشيطان الى القلب

اعلم أنّ مثال القلب مثال حصن والشيطان عدوّ يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولي عليه ولا يقدر على حفظ الحصن من العدوّ إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدري أبوابه، فحماية القلب عن وساوس الشيطان واجبة وهو فرض عين على كل عبد مكلف، وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضًا واجب، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله فصارت معرفة مداخله واجبة. ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد وهي كثيرة، ولكنا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التي لا تضبق عن كثرة جنود الشيطان.

---

(١) حديث «كان راهب في بني إسرائيل فأخذ الشيطان جارية فخنقها وألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب.... الحديث». فهو الذي قال الله تعالى فيه ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ [الحشر:١٦]». رواه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وابن مردويه في تفسيره في حديث عبيد بن أبي رفاعة مرسلا وللحاكم نحوه موقوفا على علي بن أبي طالب وقال صحيح الإسناد ووصله بطين في مسنده من حديث علي.

(٢) صحيح: حديث «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه». متفق عليه من حديث النعمان بن بشير «من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه» لفظ البخاري [البخاري: ٥٢، مسلم: ١٥٩٩].

فمن أبوابه العظيمة: الغضب والشهوة؛ فإنّ الغضب هو غول العقل وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان. ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبي بالكرة. فقد روي أن موسى عليه السلام لقيه إبليس فقال له: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليمًا وأنا خلق من خلق الله أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لي إلى ربي أن يتوب عليَّ، فقال موسى: نعم، فلما صعد موسى الجبل وكلم ربه عز وجل وأراد النزول قال له ربه: أدِّ الأمانة، فقال موسى: يا رب عبدك إبليس يريد أن تتوب عليه، فأوحى الله تعالى إلى موسى: يا موسى قد قضيت حاجتك مُرْهُ أن يسجد لقبر آدم حتى يتاب عليه، فلقي موسى إبليس فقال له: قد قضيت حاجتك أمرت أن تسجد لقبر آدم حتى يتاب عليك، فغضب واستكبر وقال: لم أسجد له حيًا أأسجد له ميتًا؟ ثم قال له: يا موسى إن لك عليَّ حقًا بما شفعت لي إلى ربك فاذكرني عند ثلاث لا أهلك فيهن: اذكرني حين تغضب فإن روحي في قلبك وعيني في عينك وأجري منك مجرى الدم؛ اذكرني إذا غضبت فإنه إذا غضب الإنسان نفخت في أنفه فما يدري ما يصنع، واذكرني حين تلقى الزحف فإني آتي ابن آدم حين يلقى الزحف فأذكره زوجته وولده وأهله حتى يولي، وإياك أن تجلس إلى امرأة ليست بذات محرم فإني رسولها إليك ورسولك إليها فلا أزال حتى أفتنك بها وأفتنها بك.

فقد أشار بهذا إلى الشهوة والغضب والحرص فإن الفرار من الزحف حرص على الدنيا، وامتناعه من السجود لآدم ميتًا هو الحسد وهو أعظم مداخله، وقد ذكر أن بعض الأولياء قال لإبليس: أرني كيف تغلب ابن آدم؟ فقال: آخذه عند الغضب وعند الهوى، فقد حكي أن إبليس ظهر لراهب فقال له الراهب: أي أخلاق بني آدم أعون لك؟ قال: الحدّة فإن العبد إذا كان حديدًا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة. وقيل: إن الشيطان يقول كيف يغلبني ابن آدم إذا رضي جئت حتى أكون في قلبه وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه؟

ومن أبوابه العظيمة: الحسد والحرص فمهما كان العبد حريصًا على شيء أعماه حرصه وأصمه. إذ قال ﷺ: «حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ» [(١)]، ونور البصيرة هو الذي يعرف مداخل الشيطان فإذا غطاه الحسد والحرص لم يبصر فحينئذ يجد الشيطان فرصة فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته وإن كان منكرًا وفاحشًا.

فقد روي أن نوحًا عليه السلام لما ركب السفينة حمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمره الله تعالى، فرأى في السفينة شيخًا لم يعرفه فقال له نوح: ما أدخلك؟ فقال: دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معي وأبدانهم معك، فقال له نوح: اخرج منها يا عدوّ الله فإنك لعين، فقال له إبليس: خمس أهلك بهن الناس وسأحدّثك منهن بثلاث ولا أحدّثك باثنتين، فأوحى الله تعالى إلى نوح: أنه لا حاجة لك بالثلاث فليحدّثك بالاثنتين، فقال له نوح: ما

(١) ضعيف: حديث «حبك الشيء يعمي ويصم». أخرجه أبو داود من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف [أبو داود: ٥١٣٠، ضعفه الشيخ الألباني في سنن أبي داود].

الاثنتان؟ فقال: هما اللتان لا تكذباني هما اللتان لا تخلفاني بهما أهلك الناس؛ الحرص والحسد، فبالحسد لعنت وجعلت شيطانًا رجيمًا، وأما الحرص فإنه أبيح لآدم الجنة كلها إلا الشجرة فأصبت حاجتي منه بالحرص.

ومن أبوابه العظيمة :الشبع من الطعام وإن كان حلالًا صافيًا؛ فإنّ الشبع يقوّي الشهوات والشهوات أسلحة الشيطان.

فقد روي أنّ إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شيء فقال له: يا إبليس ما هذه المعاليق؟ قال: هذه الشهوات التي أصبت بها ابن آدم فقال: فهل فيّ منها شيء؟ قال: ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة وعن الذكر، قال: فهل غير ذلك؟ قال: لا. قال لله عليَّ أن لا أملأ بطني من الطعام أبدًا.

فقال له إبليس :ولله عليَّ أن لا أنصح مسلمًا أبدًا. ويقال في كثرة الأكل ست خصال مذمومة؛ أولها :أن يذهب خوف الله من قلبه.

الثاني :أن يذهب رحمة الخلق من قلبه لأنه يظن أنهم كلهم شباع.

والثالث :أنه يثقل عن الطاعة.

والرابع :أنه إذا سمع كلام الحكمة لا يجد له رقة.

والخامس :أنه إذا تكلم بالموعظة والحكمة لا يقع في قلوب الناس.

والسادس :أن يهيج فيه الأمراض.

ومن أبوابه : حب التزين من الأثاث والثياب والدار، فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالبًا على قلب الإنسان باض فيه وفرخ، فلا يزال يدعوه إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها وتوسيع أبنيتها ويدعوه إلى التزين بالثياب والدواب ويستسخره فيها طول عمره، وإذا أوقعه في ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية، فإن بعض ذلك يجره إلى البعض فلا يزال يؤديه من شيء إلى شيء إلى أن يساق إليه أجله فيموت وهو في سبيل الشيطان واتباع الهوى ويخشى من ذلك سوء العاقبة بالكفر نعوذ بالله منه.

ومن أبوابه العظيمة : الطمع في الناس، لأنه إذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبيس حتى يصير المطموع فيه كأنه معبوده فلا يزال يتفكر في حيلة التودد والتحبب إليه ويدخل كل مدخل للوصول إلى ذلك.

وأقل أحواله الثناء عليه بما ليس فيه والمداهنة له بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقد روى صفوان بن سليم أن إبليس تمثل لعبد الله بن حنظلة فقال له: يا ابن حنظلة احفظ عني شيئًا أعلمك به فقال: لا حاجة لي به.

قال : انظر فإن كان خيرًا أخذت وإن كان شرًا رددت، يا ابن حنظلة لا تسأل أحدًا غير الله سؤال رغبة، وانظر كيف تكون إذا غضبت، فإني أملكك إذا غضبت.

ومن أبوابه العظيمة : العجلة وترك التثبت في الأمور، وقال ﷺ: «العَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ

وَالتَّأَنِّي مِنَ الله تَعَالَى» [(١)]. وقال عز وجل: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء :٣٧] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء :١١] وقال لنبيه : ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه :١١٤] وهذا لأن الأعمال ينبغي أن تكون بعد التبصرة والمعرفة، والتبصرة تحتاج إلى تأمل وتمهل، والعجلة تمنع من ذلك، وعند الاستعجال يروّج الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدري. فقد روي أنه لما ولد عيسى ابن مريم عليه السلام أتت الشياطين إبليس فقالوا: أصبحت الأصنام قد نكست رءوسها، فقال: هذا حادث قد حدث مكانكم فطار حتى أتى خافقي الأرض فلم يجد شيئًا، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد وإذا الملائكة حافين به، فرجع إليهم فقال: إن نبيًا قد ولد البارحة ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلا وأنا حاضرها إلا هذا، فأيسوا من أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ولكن ائتوا بني آدم من قبل العجلة والخفة.

ومن أبوابه العظيمة : الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال من العروض والدواب والعقار؛ فإن كل ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان، فإن من معه قوته فهو فارغ القلب. فلو وجد مائة دينار مثلًا على طريق انبعث من قلبه شهوات تحتاج كل شهوة منها إلى مائة دينار أخرى فلا يكفيه ما وجد بل يحتاج إلى تسعمائة أخرى، وقد كان قبل وجود المائة مستغنيًا، فالآن لما وجد مائة ظن أنه صار بها غنيًا **وقد صار محتاجًا إلى تسعمائة ليشتري** دارًا يعمرها وليشتري جارية وليشتري أثاث البيت ويشتري الثياب الفاخرة، وكل شيء من ذلك يستدعي شيئًا آخر يليق به.

وذلك لا آخر له فيقع في هاوية آخرها عمق جهنم فلا آخر لها سواء. قال ثابت البناني لما بعث رسول الله ﷺ قال إبليس لشياطينه: لقد حدث أمر فانظروا ما هو فانطلقوا حتى أعيوا ثم جاؤوا وقالوا ما ندري؟ قال: أنا آتيكم بالخبر فذهب ثم جاء وقال: قد بعث الله محمدًا قال: فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي ﷺ فينصرفون خائبين ويقولون: ما صحبنا قومًا قط مثل هؤلاء نصيب منهم ثم يقومون إلى صلاتهم فيمحى ذلك، فقال لهم إبليس: رويدًا بهم عسى الله أن يفتح لهم الدنيا فنصيب منهم حاجتنا [(٢)].

وروي أن عيسى عليه الصلاة والسلام توسد يومًا حجرًا فمرّ به إبليس فقال: يا عيسى رغبت في الدنيا؟ فأخذه عيسى ﷺ فرمى به من تحت رأسه وقال: هذا لك مع الدنيا وعلى الحقيقة من يملك حجرًا يتوسد به عند النوم فقد ملك من الدنيا ما يمكن أن يكون عدّة للشيطان عليه.

فإن القائم بالليل مثلًا للصلاة مهما كان بالقرب منه حجر، يمكن أن يتوسده؟ فلا يزال يدعوه إلى النوم وإلى أن يتوسده، ولو لم يكن ذلك لكان لا يخطر له ذلك ببال ولا تتحرّك رغبته

---

(١) حديث «العجلة من الشيطان والتأني من الله». أخرجه الترمذي من حديث سهل بن سعد بلفظ الأناة وقا حسن.

(٢) حديث ثابت: لما بعث ﷺ قال إبليس لشياطينه: لقد حدث أمر ..... الحديث». أخرجه ابن أبي الدنيا و مكايد الشيطان هكذا مرسلا.

إلى النوم. هذا في حجر فكيف بمن يملك المخاد الوثيرة والفرش الوطيئة والمتنزهات الطيبة فمتى ينشط لعبادة الله تعالى؟.

ومن أبوابه العظيمة: البخل وخوف الفقر؛ فإن ذلك هو الذي يمنع الإنفاق والتصدق ويدعو إلى الادخار والكنز والعذاب الأليم وهو الموعود للمكاثرين كما نطق به القرآن العزيز. قال خيثمة بن عبد الرحمن: إن الشيطان يقول: ما غلبني ابن آدم غلبة فلن يغلبني على ثلاث؛ أن آمره أن يأخذ المال من غير حقه. وإنفاقه في غير حقه، ومنعه من حقه. وقال سفيان: ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر فإذا قبل ذلك منه أخذ في الباطل ومنع من الحق وتكلم بالهوى وظن بربه ظن السوء.

ومن آفات البخل، الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال، والأسواق هي معشش الشياطين. وقال أبو أمامة إن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ إِبْلِيسَ لَمَّا نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ قَالَ: يا ربِّ أَنْزَلْتَنِي إِلَى الأَرْضِ وَجَعَلْتَنِي رَجِيمًا فَاجْعَلْ لِي بَيْتًا. قالَ: الحَمَّامُ، قالَ: اجْعَلْ لِي مَجْلِسًا. قال: الأَسْوَاقُ ومَجَامِعُ الطُّرُقِ، قالَ: اجْعَلْ لِي طَعَامًا. قالَ: طَعَامُكَ ما لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ الله عَلَيْهِ، قالَ: اجْعَلْ لِي شَرَابًا. قالَ: كُلُّ مُسْكِرٍ، قَالَ: اجْعَلْ لِي مُؤَذِّنًا قالَ: المَزَامِيرُ، قالَ: اجْعَلْ لِي قُرْآنًا. قالَ: الشِّعْرُ، قالَ: اجْعَلْ لِي كِتَابًا. قالَ: الوَشْمُ، قالَ: اجْعَلْ لِي حَدِيثًا. قالَ: الكَذِبُ، قالَ: اجْعَلْ لِي مَصَائِدَ قالَ: النِّسَاءُ»[1].

ومن أبوابه العظيمة التوصل: التعصب للمذاهب والأهواء والحقد على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار، وذلك مما يهلك العباد والفساق جميعًا فإن الطعن في الناس والاشتغال بذكر نقصهم صفة مجبولة في الطبع من الصفات السبعية، فإذا خيل إليه الشيطان أن ذلك هو الحق وكان موافقًا لطبعه غلبت حلاوته على قلبه فاشتغل به بكل همته، وهو بذلك فرحان مسرور يظن أنه يسعى في الدين وهو ساع في اتباع الشياطين، فترى الواحد منهم يتعصب لأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه وهو آكل الحرام ومطلق اللسان بالفضول والكذب ومتعاط لأنواع الفساد، ولو رآه أبو بكر لكان أوّل عدوّ له إذ موالي أبي بكر من أخذ سبيله وسار بسيرته وحفظ ما بين لحييه، وكان من سيرته رضي الله عنه أن يضع حصاة في فمه ليكف لسانه عن الكلام فيما لا يعنيه فأنى لهذا الفضولي أن يدعي ولاءه وحبه ولا يسير بسيرته؟

وترى فضوليًا آخر يتعصب لعلي رضي الله عنه وكان من زهد علي وسيرته أنه لبس في خلافته ثوبًا اشتراه بثلاثة دراهم وقطع رأس الكمين إلى الرسغ، ونرى الفاسق لابسًا ثياب الحرير ومتجملًا بأموال اكتسبها من حرام وهو يتعاطى حب علي رضي الله عنه ويدعيه وهو أول خصمائه يوم القيامة، وليت شعري من أخذ ولدًا عزيزًا لإنسان هو قرة عينه وحياة قلبه فأخذ

---

(١) حديث أبي أمامة «إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال يا رب أنزلتني إلى الأرض وجعلتني رجيما فأجعل لي بيتا قال الحمام .... الحديث». أخرجه الطبراني في الكبير وإسناده ضعيف جدا ورواه بنحوه من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف أيضاً.

يضربه ويمزقه وينتف شعره ويقطعه بالمقراض وهو مع ذلك يدعي حب أبيه وولاءه فكيف يكون حاله عنده؟ ومعلوم أن الدين والشرع كانا أحب إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة رضي الله عنهم، من الأهل والولد بل من أنفسهم والمقتحمون لمعاصي الشرع هم الذين يمزقون الشرع ويقطعونه بمقاريض الشهوات ويترددون به إلى عدوّ الله إبليس وعدوّ أوليائه فترى كيف يكون حالهم يوم القيامة عند الصحابة وعند أولياء الله تعالى؟ لا بل لو كشف الغطاء وعرف هؤلاء ما تحبه الصحابة في أمة رسول الله ﷺ لاستحيوا أن يجروا على اللسان ذكرهم مع قبح أفعالهم؟ ثم إن الشيطان يخيل إليهم أن من مات محبًا لأبي بكر وعمر فالنار لا تحوم حوله، ويخيل إلى الآخر أنه إذا مات محبًا لعلي لم يكن عليه خوف، وهذا رسول الله ﷺ يقول لفاطمة رضي الله عنها وهي بضعة منه [(١)]: «اعْمَلِي فَإِنِّي لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيْئًا» [(٢)] وهذا مثال أوردناه من جملة الأهواء.

وهكذا حكم المتعصبين للشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم من الأئمة فكل من ادعى مذهب إمام وهو ليس يسير بسيرته فذلك الإمام هو خصمه يوم القيامة إذ يقول له:

كان مذهبي العمل دون الحديث باللسان، وكان الحديث باللسان لأجل العمل لا لأجل الهذيان؛ فما بالك خالفتني في العمل والسيرة التي هي مذهبي ومسلكي الذي سلكته وذهبت فيه إلى الله تعالى ثم ادعيت مذهبي كاذبًا؟ وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أهلك به أكثر العالم، وقد سلمت المدارس لأقوام قل من الله خوفهم وضعفت في الدين بصيرتهم وقويت في الدنيا رغبتهم واشتد على الاستتباع حرصهم ولم يتمكنوا من الاستتباع وإقامة الجاه إلا بالتعصب، فحبسوا ذلك في صدورهم ولم ينبهوهم على مكائد الشيطان فيه، بل نابوا عن الشيطان في تنفيذ مكيدته فاستمر الناس عليه ونسوا أمهات دينهم فقد هلكوا وأهلكوا فالله تعالى يتوب علينا وعليهم، وقال الحسن: بلغنا أن إبليس قال: سوّلت لأمة محمد ﷺ المعاصي فقصموا ظهري بالاستغفار فسوّلت لهم ذنوبًا لا يستغفرون الله تعالى منها وهي الأهواء.

وقد صدق الملعون فإنهم لا يعلمون أن ذلك من الأسباب التي تجر إلى المعاصي فكيف يستغفرون منها؟

ومن عظيم حيل الشيطان أن يشغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس في المذاهب والخصومات.

قال عبد الله بن مسعود: جلس قوم يذكرون الله تعالى فأتاهم الشيطان ليقيمهم عن مجلسهم ويفرق بينهم فلم يستطع، فأتى رفقة أخرى يتحدّثون بحديث الدنيا فأفسد بينهم فقاموا يقتتلون، وليس إياهم يريد، فقام الذين يذكرون الله تعالى فاشتغلوا بهم يفصلون بينهم

(١) صحيح: حديث «فاطمة بضعة مني». متفق عليه من حديث المسور بن مخرمة [البخاري: ٣٧١٤، مسلم: ٢٤٤٩].

(٢) حديث «إني لا أغني عنك من الله شيئا». قاله لفاطمة متفق عليه من حديث أبي هريرة [البخاري: ٢٧٥٣، مسلم: ٢٠٦].

فتفرقوا عن مجلسهم، وذلك مراد الشيطان منهم.

ومن أبوابه؛ حمل العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحروا فيه على التفكر في ذات الله تعالى وصفاته وفي أمور لا يبلغها حدّ عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين، أو يخيل إليهم في الله تعالى خيالات يتعالى الله عنها يصير أحدهم بها كافرًا أو مبتدعًا وهو به فرح مسرور مبتهج بما وقع في صدره، يظن ذلك هو المعرفة والبصيرة وأنه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله فأشدّ الناس حماقة أقواهم اعتقادًا في عقل نفسه وأثبت الناس عقلًا أشدّهم اتهامًا لنفسه وأكثرهم سؤالًا من العلماء. قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطانَ يَأْتِي أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَكَ؟ فَيَقُولُ: الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَيَقُولُ: فَمَنْ خَلَقَ الله؟ فَإذا وَجَدَ أَحَدُكُمْ ذلِكَ فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِالله وَرَسُولِهِ فَإِنَّ ذلِكَ يَذْهَبُ عَنْهُ» [(١)] والنبي ﷺ لم يأمر بالبحث في علاج هذا الوسواس فإن هذا وسواس يجده عوام الناس دون العلماء وإنما حق العوام أن يؤمنوا ويسلموا ويشتغلوا بعبادتهم ومعايشهم ويتركوا العلم للعلماء، فالعامي لو يزني ويسرق كان خيرًا له من أن يتكلم في العلم فإنه من تكلم في الله وفي دينه من غير إتقان العلم وقع في الكفر من حيث لا يدري، كمن يركب لجة البحر وهو لا يعرف السباحة ومكائد الشيطان فيما يتعلق بالعقائد، والمذاهب لا تحصر وإنما أردنا بما أوردناه المثال.

ومن أبوابه، سوء الظن بالمسلمين. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] فمن يحكم بشر على غيره بالظن بعثه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالغيبة فيهلك أو يقصر في القيام بحقوقه أو يتوانى في إكرامه وينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيرًا منه.

وكل ذلك من المهلكات ولأجل ذلك منع الشرع من التعرض للتهم، فقال ﷺ: «اتَّقُوا مَوَاضِعَ التُّهَمِ» [(٢)]، حتى احترز هو ﷺ من ذلك. روي عن علي بن حسين أن صفية بنت حيي بن أخطب أخبرته أن النبي ﷺ كان معتكفًا في المسجد قالت: فأتيته فتحدثت عنده فلما أمسيت انصرفت فقام يمشي معي فمرَّ به رجلان من الأنصار فسلما ثم انصرفا فناداهما وقال: «إِنَّها صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيَ» فقالا: يا رسول الله ما نظن بك إلا خيرًا، فقال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ مِنَ الجَسَدِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْكُما» [(٣)]، فانظر كيف أشفق ﷺ على دينهما فحرسهما؟ وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق الاحتراز من التهمة حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين في أحواله؟ فيقول: مثلي لا يظن به إلا الخير إعجابًا منه

---

(١) صحيح: حديث عائشة «إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلقك؟ فيقول الله ... الحديث». أخرجه أحمد والبزار وأبو يعلى في مسانيدهم ورجاله ثقات [أحمد: ٢٥٦٧١] وهو متفق عليه من حديث أبي هريرة [البخاري: ٣٢٧٦، مسلم: ١٣٤].

(٢) حديث «اتقوا مواضع التهم». لم أجد له أصلا.

(٣) صحيح: حديث «صفية بنت حيي: أن النبي ﷺ كان معتكفا فأتيته فتحدثت عنده ... الحديث». فقال «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم .... الحديث». متفق عليه [البخاري: ٢٠٣٨، مسلم: ٢١٧٥].

بنفسه.

فإن أورع الناس وأتقاهم وأعلمهم لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة، بل بعين الرضا بعضهم وبعين السخط بعضهم، ولذلك قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيبٍ كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الأشرار، فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشر. فمهما رأيت إنسانًا يسيء الظن بالناس طالبًا للعيوب فاعلم أنه خبيث الباطن وأن ذلك خبثه يترشح منه، وإنما رأى غيره من حيث هو فإن المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق.

فهذه بعض مداخل الشيطان إلى القلب ولو أردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه وفي هذا القدر ما ينبه على غيره فليس في الآدمي صفة مذمومة إلا وهي سلاح الشيطان ومدخل من مداخله.

فإن قلت: فما العلاج في دفع الشيطان، وهل يكفي في ذلك ذكر الله تعالى وقول الإنسان لا حول ولا قوة إلا بالله؟ فاعلم أن علاج القلب في ذلك سد هذه المداخل بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة وذلك مما يطول ذكره.

وغرضنا في هذا الربع من الكتاب بيان علاج الصفات المهلكات وتحتاج كل صفة إلى كتاب منفرد ، على ما سيأتي شرحه ، نعم إذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات كان للشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات ولم يكن له استقرار ويمنعه من الاجتياز ذكر الله تعالى لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة، وإلا فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب فلا يدفع سلطان الشيطان.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١] خصص بذلك المتقي، فمثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك فإن لم يكن بين يديك خبز أو لحم فإنه ينزجر بأن تقول له: اخسأ، فمجرد الصوت يدفعه. فإن كان بين يديك لحم وهو جائع فإنه يهجم على اللحم ولا يندفع بمجرد الكلام، فالقلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر، فأما الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر إلى حواشي القلب فلم يتمكن من سويدائه فيستقر الشيطان في سويداء القلب. وأما قلوب المتقين الخالية من الهوى والصفات المذمومة فإنه يطرقها الشيطان لا للشهوات بل لخلوّها بالغفلة عن الذكر، فإذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل:٩٨] وسائر الأخبار والآيات الواردة في الذكر.

قال أبو هريرة: التقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر فإذا شيطان الكافر دهين سمين كاسٍ، وشيطان المؤمن مهزول أشعث أغبر عار، فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن: مالك مهزول؟ قال: أنا مع رجل إذا أكل سمى الله فأظل جائعًا وإذا شرب سمى الله فأظل عطشانًا، وإذا لبس

سمى الله فأظل عريانًا، وإذا ادهن سمى الله فأظل شعثًا، فقال: لكني مع رجل لا يفعل شيئًا من ذلك فأنا أشاركه في طعامه وشرابه ولباسه. وكان محمد بن واسع يقول كل يوم بعد صلاة الصبح: اللهم إنك سلطت علينا عدوًّا بصيرًا بعيوبنا يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم. اللهم فآيسه منا كما آيسته من رحمتك وقنطه منا كما قنطته من عفوك وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين رحمتك إنك على كل شيء قدير. قال: فتمثل له إبليس يومًا في طريق المسجد فقال له: يا ابن واسع هل تعرفني؟ قال: ومن أنت؟ قال: أنا إبليس، فقال: وما تريد؟ قال: أريد أن لا تعلم أحدًا هذه الاستعاذة ولا أتعرض لك، قال: والله لا أمنعها ممن أرادها فاصنع ما شئت.

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: كان شيطان يأتي النبي ﷺ بيده شعلة من نار فيقوم بين يديه وهو يصلي فيقرأ ويتعوذ فلا يذهب، فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال له: قل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن فتن الليل والنهار، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن.

فقال ذلك فطفئت شعلته وخر على وجهه [١] وقال الحسن: نبئت أن جبرائيل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: إن عفريتًا من الجن يكيدك فإذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي [٢]، وقال ﷺ: «أَتَانِي الشَّيْطَانُ فَنَازَعَنِي ثُمَّ نَازَعَنِي فَأَخَذْتُ بِحَلْقِهِ فَوَالَّذِي بَعَثَنِي بِالحَقِّ ما أَرْسَلْتُهُ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ مَاءٍ لِسَانِهِ عَلَى يَدِي، وَلَوْلا دَعْوَةُ أَخِي سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلامُ لأَصْبَحَ طَرِيحًا فِي المَسْجِدِ» [٣]، وقال ﷺ: «ما سَلَكَ عُمَرُ فَجًّا إلاَّ سَلَكَ الشَّيْطانُ فَجًّا غَيْرَ الَّذِي سَلَكَهُ عُمَرُ» [٤]، وهذا لأن القلوب كانت مطهرة عن مرعى الشيطان وقوته وهي الشهوات، فمهما طمعت في أن يندفع الشيطان عنك بمجرد الذكر كما اندفع عن عمر رضي الله عنه كان محالًا، وكنت كمن

---

(١) صحيح: حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى: كان الشيطان يأتي النبي ﷺ بيده شعلة من نار .... الحديث». أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان هكذا مرسلا ولمالك في الموطأ نحوه عن يحيى بن سعيد مرسلا ووصله ابن عبد البر في التمهيد من رواية يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن عياش الشامي عن ابن مسعود ورواه أحمد والبزار من حديث عبد الرحمن بن حبيش وقيل له: كيف صنع رسول الله ﷺ ليلة كادته الشياطين؟ فذكر نحوه [السلسلة الصحيحة: ٢٩٩٥].

(٢) ضعيف: حديث الحسن: نبئت أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: إن عفريتا من الجن يكيدك. أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان هكذا مرسلا [ضعيف الجامع: ٧٢].

(٣) صحيح: حديث «أتاني شيطان فنازعني ثم نازعني فأخذت بحلقه .... الحديث». أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية الشعبي مرسلا هكذا [السلسلة الضعيفة: ٣٢٥١] وللبخاري من حديث أبي هريرة «أن عفريتا من الجن تفلت على البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع على صلاتي فأمكنني الله منه... الحديث» [البخاري: ٤٦١] والنسائي في الكبرى من حديث عائشة: كان يصلي فأتاه الشيطان فأخذه فصرعه فخنقه قال حتى وجدت برد لسانه على يدي... الحديث» وإسناده جيد.

(٤) صحيح: حديث «ما سلك عمر فجا إلا سلك الشيطان فجا غير فجه». متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص بلفظ «يا ابن الخطاب ما لقيك الشيطان سالكاً فجا... الحديث» [البخاري: ٦٠٨٥، مسلم: ٢٣٩٧].

يطمع أن يشرب دواء قبل الاحتماء والمعدة مشغولة بغليظ الأطعمة، ويطمع أن ينفعه كما نفع الذي شربه بعد الاحتماء وتخلية المعدة، والذكر: الدواء، والتقوى: احتماء وهي تخلي القلب عن الشهوات.

فإذا نزل الذكر قلبًا فارغًا عن غير الذكر اندفع الشيطان كما تندفع العلة بنزول الدواء في المعدة الخالية عن الأطعمة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق :٣٧] وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج :٤] ومن ساعد الشيطان بعمله فهو مواليه وإن ذكر الله بلسانه. وإن كنت تقول الحديث قد ورد مطلقًا بأن الذكر يطرد الشيطان [١].

ولم تفهم أن أكثر عمومات الشرع مخصوصة بشروط نقلها علماء الدين فانظر إلى نفسك، فليس الخبر كالعيان، وتأمل أن منتهى ذكرك وعبادتك الصلاة؛ فراقب قلبك إذا كنت في صلاتك كيف يجاذبه الشيطان إلى الأسواق وحساب العالمين وجواب المعاندين وكيف يمرّ بك في أودية الدنيا ومهالكها حتى أنك لا تذكر ما قد نسيته من فضول الدنيا إلا في صلاتك ولا يزدحم الشيطان على قلبك إلا إذا صليت؟ فالصلاة محك القلوب فبها يظهر محاسنها ومساوئها؛ فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا فلا جرم لا ينطرد عنك الشيطان بل ربما يزيد عليك الوسواس، كما أن الدواء قبل الاحتماء ربما يزيد عليك الضرر، فإن أردت الخلاص من الشيطان فقدّم الاحتماء بالتقوى ثم أردفه بدواء الذكر يفر الشيطان منك كما فرّ من عمر رضي الله عنه.

ولذلك قال وهب بن منبه: اتق الله ولا تسب الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السر؛ أي أنت مطيع له. وقال بعضهم: يا عجبًا لمن يعصى المحسن بعد معرفته بإحسانه ويطيع اللعين بعد معرفته بطغيانه. وكما أن الله تعالى قال: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر :٦٠] وأنت تدعوه ولا يستجيب لك فكذلك تذكر الله ولا يهرب الشيطان منك لفقد شروط الذكر والدعاء.

قيل لإبراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا وقد قال تعالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر :٦٠] ؟ قال: لأن قلوبكم ميتة، قيل وما الذي أماتها؟ قال: ثمان خصال؛ عرفتم حق الله ولم تقوموا بحقه، وقرأتم القرآن ولم تعملوا بحدوده، وقلتم نحب رسول الله ﷺ ولم تعملوا بسنته، وقلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر :٦] فواطأتموه على المعاصي، وقلتم نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها، وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها، وإذا قمتم من فرشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم وافترشتم عيوب الناس أمامكم فأسخطتم ربكم، فكيف يستجيب لكم؟.

فإن قلت: فالداعي إلى المعاصي المختلفة شيطان واحد أو شياطين مختلفون؟ فاعلم أنه لا

(١) الحديث الوارد بأن الذكر يا عمر يطرد الشيطان. تقدم.

حاجة لك إلى معرفة ذلك في المعاملة فاشتغل بدفع العدوّ ولا تسأل عن صفته. كُلِ البقل من حيث يؤتى ولا تسأل عن المبقلة، ولكن الذي يتضح بنور الاستبصار في شواهد الأخبار: أنهم جنود مجندة وأن لكل نوع من المعاصي شيطانًا يخصه ويدعو إليه فأما طريق الاستبصار فذكره يطول ويكفيك القدر الذي ذكرناه وهو أن اختلاف المسببات يدل على اختلاف الأسباب كما ذكرناه في نور النار وسواد الدخان.

وأما الأخبار فقد قال مجاهد: لإبليس خمسة من الأولاد قد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره: ثبر، والأعور، ومبسوط، وداسم، وزلنبور.

فأما ثبر: فهو صاحب المصائب الذي يأمر بالثبور وشق الجيوب ولطم الخدود ودعوى الجاهلية.

وأما الأعور: فإنه صاحب الزنى يأمر به ويزينه. وأما مبسوط: فهو صاحب الكذب. وأما داسم: فإنه يدخل مع الرجل إلى أهله يرميهم بالعيب عنده ويغضبه عليهم، وأما زلنبور: فهو صاحب السوق فبسببه لا يزالون متظلمين. وشيطان الصلاة يسمى خنزب [١] وشيطان الوضوء يسمى الولهان [٢] وقد ورد في ذلك أخبار كثيرة.

وكما أن الشياطين فيهم كثرة فكذلك في الملائكة كثرة. وقد ذكرنا في كتاب الشكر السر في كثرة الملائكة واختصاص كل واحد منهم بعمل منفرد به، وقد قال أبو أمامة الباهلي قال رسول الله ﷺ: «وُكِّلَ بِالمُؤْمِنِ مائَةٌ وَسِتُّونَ مَلَكًا يَذُبُّونَ عَنْهُ ما لَمْ يقدَّرْ عَلَيْهِ مِنْ ذلِكَ؛ لِلْبَصَرِ سَبْعَةُ أَمْلاكٍ يَذُبُّونَ عَنْهُ كَمَا يُذَبُّ الذُّبَابُ عَنْ قَصْعَةِ العَسَلِ فِي اليَوْمِ الصَّائِفِ.

وَمَا لَوْ بَدَا لَكُمْ لَرَأَيْتُمُوهُ عَلَى كُلِّ سَهْلٍ وَجَبَلٍ كُلٌّ بَاسِطٌ يَدَهُ فَاغِرٌ فَاهُ، وَلَوْ وُكِلَ العَبْدُ إلى نَفْسِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ لاَخْتَطَفَتْهُ الشَّيَاطِينُ» [٣].

وقال أيوب بن يونس بن يزيد: بلغنا أنه يولد مع أبناء الإنس من أبناء الجن ثم ينشؤون معهم، وروى جابر بن عبد الله: أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض قال: يا رب هذا الذي جعلت بيني وبينه عداوة إن لم تعني عليه لا أقوى عليه، قال: لا يولد لك ولد إلا وكل به ملك، قال: يا رب زدني، قال: أجزي بالسيئة سيئة وبالحسنة عشرًا إلى ما أزيد، قال: رب زدني، قال: باب التوبة مفتوح ما دام في الجسد الروح، قال إبليس: يا رب هذا العبد الذي كرمته عليَّ إن لا تعني عليه لا أقوى عليه؟ قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك ولد. قال: يا رب زدني، قال: تجري منهم مجرى الدم وتتخذون صدورهم بيوتًا، قال: رب زدني، قال: اجلب عليهم بخيلك

---

(١) حديث «إن شيطان الصلاة يسمى خنزب». أخرجه مسلم من حديث عثمان بن أبي العاص وقد تقدم أول الحديث.

(٢) حديث «إن شيطان الوضوء يسمى الولهان». تقدم وهو عند الترمذي من حديث أبي.

(٣) حديث أبي أمامة «وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه .... الحديث». أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان والطبراني في المعجم الكبير بإسناد ضعيف.

ورجلك إلى قوله غرورًا، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خلَقَ الله الجِنَّ ثَلاثَةَ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ حَيَّاتٌ وَعَقَارِبُ وَخِشَاشُ الأَرْضِ، وَصِنْفٌ كَالرِّيحِ فِي الهَوَاءِ، وَصِنْفٌ عَلَيْهِمُ الثَّوَابُ وَالعِقَابُ.

وَخَلَقَ الله تَعَالَى الإِنْسَانَ ثلاثةَ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ كَالبَهَائِمِ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:١٧٩] وَصِنْفٌ أَجْسَامُهُمْ أَجْسَامُ بَنِي آدَمَ وَأَرْوَاحُهُم أَرْوَاحُ الشَّيَاطِينِ، وَصِنْفٌ فِي ظِلِّ الله تَعَالَى يَوْمَ القِيامَةِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلاّ ظِلُّهُ»[(١)]، وقال وهيب بن الورد: بلغنا أن إبليس تمثل ليحيى بن زكريا عليهما السلام وقال: إني أريد أن أنصحك، قال: لا حاجة لي في نصحك ولكن أخبرني عن بني آدم قال: هم عندنا ثلاثة أصناف: أما صنف منهم وهم أشد الأصناف علينا نقبل على أحدهم حتى نفتنه ونتمكن منه فيفزع إلى الاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شيء أدركنا منه ثم نعود إليه فيعود فلا نحن نيأس منه ولا نحن ندرك منه حاجتنا فنحن منه في عناء.

وأما الصنف الآخر فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم نقلبهم كيف شئنا قد كفونا أنفسهم.

وأما الصنف الثالث فهم مثلك معصومون لا نقدر منهم على شيء.

فإن قلت: فكيف يتمثل الشيطان لبعض الناس دون البعض، وإذا رأى صورة فهل هي صورته الحقيقية أو هو مثال يمثل له به؟ فإن كان على صورته الحقيقية فكيف يرى بصور مختلفة؟ وكيف يرى في وقت واحد في مكانين وعلى صورتين حتى يراه شخصان بصورتين مختلفتين؟ فاعلم أن الملك والشيطان لهما صورتان هي حقيقة صورتهما ولا تدرك حقيقة صورتهما بالمشاهدة إلا بأنوار النبوّة، فما رأى النبي ﷺ جبرائيل عليه السلام في صورته إلا مرتين[(٢)]، وذلك أنه سأله أن يريه نفسه على صورته فواعده بالبقيع وظهر له بحراء فسد الأفق من المشرق إلى المغرب، ورآه مرة أخرى على صورته ليلة المعراج عند سدرة المنتهى وإنما كان يراه في صورة الآدمي غالبًا[(٣)]، فكان يراه في صورة دحية الكلبي[(٤)]، وكان رجلًا حسن

---

(١) **ضعيف:** حديث أبي الدرداء «خلق الله الجن ثلاثة أصناف: صنف حيات وعقارب ..... الحديث». أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وابن حبان في الضعفاء في ترجمة يزيد بن سنان وضعفه والحاكم نحوه مختصرا: في الجن فقط ثلاثة أصناف. من حديث أبي ثعلبة الخشني وقال صحيح الإسناد [السلسلة الضعيفة: ٣٥٤٩].

(٢) **صحيح:** حديث: أنه ﷺ ما رأى جبريل في صورته إلا مرتين. أخرجه الشيخان من حديث عائشة: وسئلت هل رأى محمد ربه؟ وفيه: ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين [البخاري: ٣٢٣٤، مسلم: ١٧٧].

(٣) **صحيح:** حديث: أنه كان يرى جبريل في صورة الآدمي غالبا. أخرجه الشيخان من حديث عائشة وسئلت: فأين قوله ثم دنا فتدلى قالت ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل... الحديث [البخاري: ٣٢٣٥، مسلم: ١٧٧].

(٤) حديث: أنه كان يرى جبريل في صورة دحية الكلبي.

أخرجه الشيخان من حديث أسامة بن زيد: أن جبريل أتى النبي ﷺ وعنده أم سلمة فجعل يحدث ثم قام قال النبي

الوجه. والأكثر أنه يكاشف أهل المكاشفة من أرباب القلوب بمثال صورته فيتمثل الشيطان له في اليقظة، فيراه بعينه ويسمع كلامه بأذنه فيقوم ذلك مقام حقيقة صورته كما ينكشف في المنام لأكثر الصالحين.

وإنما المكاشف في اليقظة هو الذي انتهى إلى رتبة لا يمنعه اشتغال الحواس بالدنيا عن المكاشفة التي تكون في المنام فيرى في اليقظة ما يراه غيره في المنام، كما روي عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن رجلًا سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم، فرأى في النوم جسد رجل شبه البلور يرى داخله من خارجه ورأى الشيطان في صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر بين منكبه وأذنه، له خرطوم طويل دقيق قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه، فإذا ذكر الله تعالى خنس.

ومثل هذا قد يشاهد بعينه في اليقظة، فقد رآه بعض المكاشفين في صورة كلب جاثم على جيفة يدعو الناس إليها، وكانت الجيفة مثال الدنيا.

وهذا يجري مجرى مشاهدة صورته الحقيقية، فإن القلب لا بدّ وأن تظهر فيه حقيقة من الوجه الذي يقابل عالم الملكوت وعند ذلك يشرق أثره على وجهه الذي يقابل عالم الملك والشهادة لأن أحدهما متصل بالآخر.

وقد بيّنا أن القلب له وجهان: وجه إلى عالم الغيب وهو مدخل الإلهام والوحي، ووجه إلى عالم الشهادة. فالذي يظهر منه في الوجه الذي يلي جانب عالم الشهادة لا يكون إلا صورة متخيلة لأن عالم الشهادة كله متخيلات، إلا أن الخيال تارة يحصل من النظر إلى ظاهر عالم الشهادة بالحس فيجوز أن لا تكون الصورة على وفق المعنى، حتى يرى شخصًا جميل الصورة وهو خبيث الباطن قبيح السر لأن عالم الشهادة عالم كثير التلبيس.

أما الصورة التي تحصل في الخيال من إشراق عالم الملكوت على باطن سر القلوب فلا تكون إلا محاكية للصفة وموافقة لها، لأن الصورة في عالم الملكوت تابعة للصفة وموافقة لها فلا جرم لا يرى المعنى القبيح إلا بصورة قبيحة فيرى الشيطان في صورة كلب وضفدع وخنزير وغيرها، ويرى الملك في صورة جميلة فتكون تلك الصورة عنوان المعاني ومحاكية لها بالصدق، ولذلك يدل القرد والخنزير في النوم على إنسان خبيث، وتدل الشاة على إنسان سليم الصدر، وهكذا جميع أبواب الرؤيا والتعبير.

وهذه أسرار عجيبة وهي من أسرار عجائب القلب ولا يليق ذكرها بعلم المعاملة. وإنما المقصود أن تصدق بأن الشيطان ينكشف لأرباب القلوب وكذلك الملك، تارة بطريق التمثيل والمحاكاة كما يكون ذلك في النوم، وتارة بطريق الحقيقة والأكثر هو التمثيل بصورة محاكية للمعنى ، هو مثال المعنى لا عين المعنى ، إلا أنه يشاهد بالعين مشاهدة محققة وينفرد بمشاهدته المكاشف دون من حوله كالنائم.

ﷺ لأم سلمة «من هذا؟» قالت: دحية... الحديث.

بيان ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب وهمها وخواطرها وتصورها وما يعفى عنه ولا يؤاخذ به

اعلم أن هذا أمر غامض، وقد وردت فيه آيات وأخبار متعارضة يلتبس طريق الجمع بينها إلا على سماسرة العلماء بالشرع. فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «عُفِيَ عَنْ أُمَّتِي ما حَدَّثَتْ بِهِ نُفُوسَها ما لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ أَوْ تَعْمَلْ بِهِ» (١) وقال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنَّ الله تَعَالَى يَقُولُ لِلْحَفَظَةِ: إذا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلا تَكْتُبُوها فَإنْ عَمِلها فَاكْتُبُوها سَيِّئَةً، وَإذا هَمَّ بِحَسَنَةٍ لَمْ يَعْمَلْها فَاكْتُبُوها حَسَنَةً فَإنْ عَمِلَها فَاكْتُبُوها عَشْرًا» (٢) وقد خرَّجه البخاري ومسلم في الصحيحين وهو دليل على العفو عن عمل القلب وهمه بالسيئة.

وفي لفظ آخر: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَها كُتِبَتْ لَهُ إلَى سَبْعَمائَةِ ضِعْفٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ وإنْ عَمِلَها كُتِبَتْ» وفي لفظ آخر: «وَإذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَأَنَا أَغْفِرُها لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْها»، وكل ذلك يدل على العفو فأما ما يدل على المؤاخذة فقوله سبحانه: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] فدل على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يعفى عنه وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] والحق عندنا في هذه المسألة لا يوقف عليه ما لم تقع الإحاطة بتفصيل أعمال القلوب من مبدأ ظهورها إلى أن يظهر العمل على الجوارح.

فنقول: أوّل ما يرد على القلب الخاطر، كما لو خطر له مثلاً صورة امرأة وأنها وراء ظهره في الطريق لو التفت إليها لرآها.

والثاني: هيجان الرغبة إلى النظر وهو حركة الشهوة في الطبع وهذا يتولد من الخاطر الأول ونسميه ميل الطبع ويسمى الأول حديث النفس.

والثالث: حكم القلب بأن هذا ينبغي أن يفعل أي ينبغي أن ينظر إليها فإن الطبع إذا مال لم تنبعث الهمة والنية ما لم تندفع الصوارف، فإنه قد يمنعه حياء أو خوف من الالتفات وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمل وهو على كل حال حكم من جهة العقل، ويسمى هذا اعتقادًا وهو

---

(١) صحيح: حديث «عفي لأمتي عما حدثت به نفوسها». متفق عليه من حديث أبي هريرة «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها...» الحديث [البخاري: ٦٦٦٤، مسلم: ١٢٧].

(٢) حديث أبي هريرة «يقول الله إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه ... الحديث». قال المصنف أخرجه مسلم والبخاري في الصحيحين قلت هو كما قال واللفظ لمسلم فلهذا والله أعلم قدمه في الذكر [البخاري: ٧٥٠١، مسلم: ١٢٨].

يتبع الخاطر والميل.

الرابع: تصميم العزم على الالتفات وجزم النية فيه وهذا نسميه همًا بالفعل ونية وقصدًا، وهذا الهم قد يكون له مبدأ ضعيف ولكن إذا أصغى القلب إلى الخاطر الأول حتى طالت مجاذبته للنفس تأكد هذا الهم وصار إرادة مجزومة، فإذا انجزمت الإرادة فربما يندم بعد الجزم فيترك العمل وربما يغفل بعارض فلا يعمل به ولا يلتفت إليه وربما يعوقه عائق فيتعذر عليه العمل.

فههنا أربع أحوال للقلب قبل العمل بالجارحة: الخاطر وهو حديث النفس، ثم الميل، ثم الاعتقاد، ثم الهم.

فنقول: أما الخاطر فلا يؤاخذ به لأنه لا يدخل تحت الاختيار وكذلك الميل وهيجان الشهوة لأنهما لا يدخلان أيضًا تحت الاختيار، وهما المرادان بقوله ﷺ: «عفي عن أمتي ما حدثت به نفوسها» فحديث النفس عبارة عن الخواطر التي تهجس في النفس ولا يتبعها عزم على الفعل، فأما الهم والعزم فلا يسمى حديث النفس، بل حديث النفس كما روي عن عثمان ابن مظعون حيث قال للنبي ﷺ: يا رسول الله نفسي تحدثني أن أطلّق خولة، قال: «مَهْلًا إنَّ مِنْ سُنَّتِي النِّكَاحَ» قال: نفسي تحدثني أن أجبّ نفسي، قال: «مَهْلًا خِصَاءُ أُمَّتِي دُؤُوبُ الصِّيام» قال: نفسي تحدثني أن أترهب، قال: «مَهْلًا رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي الجِهَادُ وَالحَجُّ» قال: نفسي تحدثني أن أترك اللحم، قال: «مَهْلًا فإنِّي أُحِبُّهُ وَلَوْ أَصَبْتهُ لأَكَلْتُهُ وَلَوْ سَأَلْتُ الله لأَطْعَمَنِيهِ» [1]، فهذه الخواطر التي ليس معها عزم على الفعل هي حديث النفس، ولذلك شاور رسول الله ﷺ إذ لم يكن معه عزم وهمّ بالفعل.

وأما الثالث: وهو الاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل فهذا تردد بين أن يكون

---

(١) حديث: إن عثمان بن مظعون قال: يا رسول الله نفسي تحدثني أن أطلق خولة. قال: «مهلا، إن من سنتي النكاح». أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية علي بن زيد عن سعيد بن المسيب مرسلا نحوه وفيه القاسم بن عبيد الله العمري، كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وللدارمي من حديث سعد بن أبي وقاص: لما كان من أمر عثمان بن مظعون الذي كان من ترك النساء بعث إليه رسول الله ﷺ فقال «يا عثمان إني لم أومر بالرهبانية... الحديث» وفيه «من رغب عن سنتي فليس مني» وهو عندكم بلفظ: رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا. وللبغوي والطبراني في معجمي الصحابة بإسناد حسن من حديث عثمان بن مظعون: أنه قال يا رسول الله إني رجل تشق على هذه العزوبة في المغازي فتأذن لي يا رسول الله في الخصاء فأختصي قال «لا، ولكن عليك يابن مظعون بالصيام فإنه مجفرة». ولأحمد والطبراني بإسناد جيد من حديث عبد الله بن عمرو «خصاء أمتي الصيام والقيام» وله من حديث سعيد بن العاص بإسناد فيه ضعف: إن عثمان بن مظعون قال: يا رسول الله ائذن لي في الاختصاء، فقال له رسول الله ﷺ: «إن الله قد أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة والتكبير على كل شرف... الحديث» وابن ماجه بسند ضعيف من حديث عائشة «النكاح من سنتي» ولأحمد وأبي يعلى من حديث أنس «لكل نبي» وقال أبو يعلى «لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله» وفيه زيد العمى وهو ضعيف ولأبي داود من حديث أبي أمامة «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله» وإسناده جيد.

اضطرارًا أو اختيارًا، والأحوال تختلف فيه فالاختياري منه يؤاخذ به والاضطراري لا يؤاخذ به.

وأما الرابع: وهو الهم بالفعل؛ فإنه مؤاخذ به إلا أنه إن لم يفعل نظر فإن كان قد تركه خوفًا من الله تعالى وندمًا على همه كتبت له حسنة لأن همه سيئة وامتناعه ومجاهدته نفسه حسنة، والهم على وفق الطبع مما يدل على تمام الغفلة عن الله تعالى، والامتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع يحتاج إلى قوّة عظيمة فجده في مخالفة الطبع هو العمل لله تعالى والعمل لله تعالى أشدّ من جده في موافقة الشيطان بموافقة الطبع فكتب له حسنة لأنه رجح جدّه في الامتناع وهمه به على همه بالفعل، وإن تعوق الفعل بعائق أو تركه بعذر لا خوفًا من الله تعالى كتبت عليه سيئة، فإن همه فعل من القلب اختياري.

والدليل على هذا التفصيل ما روي في الصحيح مفصلًا في لفظ الحديث. قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «قَالَتِ المَلائِكَةُ عَلَيْهِمُ السَّلامُ رَبِّ ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ فَقَالَ: ارْقُبُوهُ، فَإِنْ هُوَ عَمِلَها فَاكْتُبُوها لَهُ بِمِثْلِها، وَإِنْ تَرَكَها فَاكْتُبُوها لَهُ حَسَنَةً إِنَّما تَرَكَها مِنْ جَرَّائِي» [(١)]، وحيث قال: فإن لم يعملها: أراد به تركها لله، فأما إذا عزم على فاحشة فتعذرت عليه بسبب أو غفلة فكيف تكتب له حسنة؟ وقد قال ﷺ: **«إِنَّمَا يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ»** [(٢)]، ونحن نعلم أن من عزم ليلًا على أن يصبح ليقتل مسلمًا أو يزني بامرأة فمات تلك الليلة مات مصرًا ويحشر على نيته وقد همَّ بسيئة ولم يعملها.

والدليل القاطع فيه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«إِذا الْتَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِما فَالقَاتِلُ والمَقْتُولُ فِي النَّارِ»** فقيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: **«لأَنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ»** [(٣)]، وهذا نص في أنه صار بمجرد الإرادة من أهل النار مع أنه قتل مظلومًا، فكيف يظن أن الله لا يؤاخذ بالنية والهم؟ بل كل هم دخل تحت اختيار العبد فهو مؤاخذ به إلا أن يكفّره بحسنة، ونقض العزم بالندم حسنة فلذلك كتبت له حسنة، فأما فوت المراد بعائق فليس بحسنة.

وأما الخواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة فكل ذلك لا يدخل تحت اختيار فالمؤاخذة به تكليف ما لا يطاق، ولذلك لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٤] جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله ﷺ وقالوا: كلفنا ما لا

---

(١) **صحيح**: حديث «قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة - وهو أبصر .... الحديث». قال المصنف إنه في الصحيح وهو كما قال في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة [مسلم: ١٢٩].

(٢) حديث «إنما يحشر الناس على نياتهم». أخرجه ابن ماجه من حديث جابر دون قوله «إنما» [ابن ماجه: ٤٢٣٠، وصححه الألباني في سنن ابن ماجه] وله من حديث أبي هريرة «إنما يبعث الناس على نياتهم» وإسنادهما حسن ومسلم من حديث عائشة «يبعثهم الله على نياتهم» وله من حديث أم سلمة «يبعثون على نياتهم» [مسلم: ٢٨٨٤].

(٣) حديث «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار .... الحديث». متفق عليه من حديث أبي بكرة [البخاري: ٣١، مسلم: ٢٨٨٨].

نطيق إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه ثم يحاسب بذلك فقال ﷺ: «لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ كَمَا قَالَتِ الْيَهُودُ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا فَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا» (١)، فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] فظهر به أن كل ما لا يدخل تحت الوسع من أعمال القلب هو الذي لا يؤاخذ به. فهذا هو كشف الغطاء عن هذا الالتباس.

وكل من يظن أن كل ما يجري على القلب يسمى حديث النفس ولم يفرق بين هذه الأقسام الثلاثة فلا بد وأن يغلط وكيف لا يؤاخذ بأعمال القلب من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وجملة الخبائث من أعمال القلب؟ بل السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولًا؟ أي ما يدخل تحت الاختيار.

فلو وقع البصر بغير اختيار على غير ذي محرم لم يؤاخذ به فإن أتبعها نظرة ثانية كان مؤاخذًا به لأنه مختار فكذا خواطر القلب تجري هذا المجرى بل القلب أولى بمؤاخذته لأنه الأصل. قال رسول الله ﷺ: «التَّقْوَى هٰهُنا وَأَشَارَ إِلَى الْقَلْبِ» (٢)، وقال الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٧] وقال ﷺ: «الإِثْمُ حَزَّازُ الْقُلُوبِ» (٣)، وقال: «البِرُّ ما اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ» (٤)، حتى إنا نقول إذا حكم القلب المفتي بإيجاب شيء وكان مخطئًا فيه صار مثابًا عليه بل من قد ظن أنه تطهر فعليه أن يصلي.

فإن صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله. فإن تذكر ثم تركه كان معاقبًا عليه. ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته لم يعص بوطئها وإن كانت أجنبية. فإن ظن أنها

---

(١) **صحيح**: حديث: لما نزل قوله تعالى ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٤] جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله ﷺ فقالوا كلفنا ما لا نطيق ....الحديث . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وابن عباس نحوه [مسلم: ١٢٥] .

(٢) **صحيح**: حديث : «التقوى ههنا» وأشار إلى القلب. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال «إلى صدره» [مسلم: ٢٥٦٤].

(٣) حديث «الإثم حواز القلوب». تقدم في العلم.

[الشرح من النهاية:

فيه «أنه اختَزَّ من كَتِف شاة ثم صلى ولم يتوضَّأ» هو افتَعَل من الحَزّ: القَطْع.

ومنه الحُزَّة وهي: القِطْعة من اللحم وغيره.

وقيل الحَز: القطع في الشيء من غير إبانَة. يقال: حَزَزْت العُود أحُزُّه حَزًّا.

(٥) ومنه حديث ابن مسعود «الإثم حَوازُّ القلوب» هي الأمور التي تَحُزُّ فيها: أي تؤثِّر كما يؤثر الحزُّ في الشيء، وهو ما يَخْطر فيها من أن تكون مَعاصي لفَقْد الطُّمَأْنِينَة إليها، وهي بتشديد الزَّاي: جمع حَازّ. يقال إذا أصاب مِرْفقُ البعير طرَف كِرْكِرَته فقطعه وأذماه: قيل به حازٌّ.

ورواه شَمِر «الإثْم حَوَّاز القلوب» بتشديد الواو: أي يَحُوزُها ويَتَملَّكُها ويَغْلب عليها، ويروى «الإثم حَزَّاز القلوب» بزايين الأولى مشددة، وهي فَعَّال من الحَزّ.]

(٤) حديث «البر ما اطمأن إليه القلب، وإن أفتوك وأفتوك». أخرجه الطبراني من حديث أبي ثعلبة ولأحمد نحوه من حديث وابصة وفيه «وإن أفتاك الناس وأفتوك» وقد تقدما.

أجنبية ثم وطئها عصى بوطئها وإن كانت زوجته. وكل ذلك نظر إلى القلب دون الجوارح.

بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا؟:

اعلم أن العلماء المراقبين للقلوب الناظرين في صفاتها وعجائبها اختلفوا في هذه المسألة على خمس فرق:

فقالت فرقة: الوسوسة تنقطع بذكر الله عز وجل لأنه عليه السلام قال: «فإذا ذكر الله خنس» (١)، والخنس هو السكوت فكأنه يسكت.

وقالت فرقة: لا ينعدم أصله ولكن يجري في القلب ولا يكون له أثر لأن القلب إذا صار مستوعبًا بالذكر كان محجوبًا عن التأثر بالوسوسة كالمشغول بهمه، فإنه قد يكلم ولا يفهم وإن كان الصوت يمر على سمعه.

وقالت فرقة: لا تسقط الوسوسة ولا أثرها أيضًا، ولكن تسقط غلبتها للقلب فكأنه يوسوس من بعد وعلى ضعف.

وقالت فرقة: ينعدم عند الذكر في لحظة وينعدم الذكر في لحظة، ويتعاقبان في أزمنة متقاربة يظن لتقاربها أنها متساوقة وهي كالكرة التي عليها نقط متفرقة فإنك إذا أدرتها بسرعة رأيت النقط دوائر بسرعة تواصلها بالحركة، واستدل هؤلاء بأن الخنس قد ورد ونحن نشاهد الوسوسة مع الذكر ولا وجه له إلا هذا.

وقالت فرقة: الوسوسة والذكر يتساوقان في الدوام على القلب تساوقًا لا ينقطع، وكما أن الإنسان قد يرى بعينيه شيئين في حالة واحدة، فكذلك القلب قد يكون مجرى لشيئين، فقد قال ﷺ: «ما مِنْ عَبْدٍ إلاَّ وَلَهُ أَرْبَعَةُ أَعْيُنٍ: عَيْنَانِ فِي رَأْسِهِ يُبْصِرُ بِهِمَا أَمْرَ دُنْيَاهُ، وَعَيْنَانِ فِي قَلْبِهِ يُبْصِرُ بِهِمَا أَمْرَ دِينِهِ» (٢)، وإلى هذا ذهب المحاسبي. والصحيح عندنا أن كل هذه المذاهب صحيحة ولكن كلها قاصرة عن الإحاطة بأصناف الوسواس، وإنما نظر كل واحد منهم إلى صنف واحد من الوسواس فأخبر عنه.

أصناف الوسواس:

الأول: أن يكون من جهة التلبيس بالحق، فإنّ الشيطان قد يلبس بالحق يقول للإنسان تترك التنعم باللذات فإن العمر طويل والصبر عن الشهوات طول العمر ألمه عظيم، فعند هذا إذا ذكر العبد عظيم حق الله تعالى وعظيم ثوابه وعقابه وقال لنفسه: الصبر عن الشهوات شديد ولكن الصبر على النار أشدّ منه، ولا بد من أحدهما فإذا ذكر العبد وعد الله تعالى ووعيده وجدّد إيمانه

---

(١) حديث «وإذا ذكر الله خنس». أخرجه ابن أبي الدنيا وابن عدي من حديث أنس في أثناء حديث «إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم... الحديث» وقد تقدم قريبا.

(٢) حديث «ما من عبد إلا وله أربعة أعين عينان في رأسه يبصر بهما أمر دنياه وعينان في قلبه يبصر بهما أمر دينه». أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بلفظ «الآخرة» مكان «دينه» وفيه الحسين ابن أحمد بن محمد الهروي السماخي الحافظ كذبه الحاكم والآفة منه.

ويقينه خنس الشيطان وهرب، إذ لا يستطيع أن يقول له النار أيسر من الصبر على المعاصي ولا يمكنه أن يقول المعصية لا تفضي إلى النار، فإنّ إيمانه بكتاب الله عز وجل يدفعه عن ذلك فينقطع وسواسه.

وكذلك يوسوس إليه بالعجب بعمله فيقول: أي عبد يعرف الله كما تعرفه ويعبده كما تعبده؟ فما أعظم مكانك عند الله تعالى فيتذكر العبد حينئذٍ أنّ معرفته وقلبه وأعضاءه التي بها عمله وعلمه كل ذلك من خلق الله تعالى فمن أين يعجب به؟ فيخنس الشيطان إذ لا يمكنه أن يقول ليس هذا من الله، فإن المعرفة والإيمان يدفعه. فهذا نوع من الوسواس ينقطع بالكلية عن العارفين المستبصرين بنور الإيمان والمعرفة.

الصنف الثاني: أن يكون وسواسه بتحريك الشهوة وهيجانها، وهذا ينقسم إلى ما يعلم العبد يقينًا أنه معصية وإلى ما يظنه بغالب الظن.

فإن علمه يقينًا خنس الشيطان عن تهييج يؤثر في تحريك الشهوة ولم يخنس عن التهييج وإن كان مظنونًا، فربما يبقى مؤثرًا بحيث يحتاج إلى مجاهدة في دفعه فتكون الوسوسة موجودة ولكنها مدفوعة غير غالبة.

الصنف الثالث: أن تكون وسوسة بمجرد الخواطر وتذكر الأحوال الغالبة والتفكر في غير الصلاة مثلًا، فإذا أقبل على الذكر تصوّر أن يندفع ساعة ويعود، ويندفع ويعود، فيتعاقب الذكر والوسوسة ويتصوّر أن يتساوقا جميعًا حتى يكون الفهم مشتملًا على فهم معنى القراءة وعلى تلك الخواطر كأنهما في موضعين من القلب. وبعيد جدًّا أن يندفع هذا الخنس بالكلية بحيث لا يخطر، ولكنه ليس محالًا إذ قال عليه السلام [1]: «مَنْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَمْ يُحَدِّثْ فِيهِمَا نَفْسَهُ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» ، فلولا أنه متصوّر لما ذكره، إلا أنه لا يتصوّر ذلك إلا في قلب استولى عليه الحب حتى صار كالمستهتر، فإنا قد نرى المستوعب القلب بعدوّ تأذى به قد يتفكر بمقدار ركعتين وركعات في مجادلة عدوّه بحيث لا يخطر بباله غير حديث عدوّه، وكذلك المستغرق في الحب قد يتفكر في محادثة محبوبه بقلبه ويغوص في فكره بحيث لا يخطر بباله غير حديث محبوبه، ولو كلمه غيره لم يسمع ولو اجتاز بين يديه أحد لكان كأنه لا يراه.

وإذا تصوّر هذا في خوف من عدوّ وعند الحرص على مال وجاه فكيف لا يتصوّر من خوف النار والحرص على الجنة ولكن ذلك عزيز لضعف الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، وإذا تأملت جملة هذه الأقسام وأصناف الوسواس علمت أنّ لكل مذهب من المذاهب وجهًا في محل مخصوص.

وبالجملة؛ فالخلاص من الشيطان في لحظة أو ساعة غير بعيد ولكن الخلاص منه عمرًا

---

(١) حديث «من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه». تقدم في الصلاة.

طويلًا بعيد جدًا، ومحال في الوجود ولو تخلص أحد من وساوس الشيطان بالخواطر وتهييج الرغبة لتخلص رسول الله ﷺ.

فقد روي: أنه نظر إلى علم ثوبه في الصلاة فلما سلم رمى بذلك الثوب وقال: «شَغَلَنِي عَنِ الصَّلاةِ» وقال: «اذْهَبُوا بِهِ إِلَى أبي جَهْمٍ وائتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّتِهِ»(١)، وكان في يده خاتم من ذهب فنظر إليه وهو على المنبر ثم رمى به وقال: «نَظْرَةٌ إِلَيْهِ وَنَظْرَة إِلَيْكُمْ»(٢)، وكان ذلك لوسوسة الشيطان بتحريك لذة النظر إلى خاتم الذهب وعلم الثوب، وكان ذلك قبل تحريم الذهب فلذلك لبسه ثم رمى به، فلا تنقطع وسوسة عروض الدنيا ونقدها إلا بالرمي والمفارقة، فما دام يملك شيئًا وراء حاجته ولو دينارًا واحدًا لا يدعه الشيطان في صلاته من الوسوسة في الفكر في ديناره، وأنه كيف يحفظه؟ وفي ماذا ينفقه؟ وكيف يخفيه حتى لا يعلم به أحد وكيف يظهره حتى يتباهى به؟ إلى غير ذلك من الوساوس.

فمن أنشب مخالبه في الدنيا وطمع في أن يتخلص من الشيطان كان كمن انغمس في العسل وظن أنّ الذباب لا يقع عليه فهو محال.

فالدنيا باب عظيم لوسوسة الشيطان. وليس له باب واحد بل أبواب كثيرة. قال حكيم من الحكماء: الشيطان يأتي ابن آدم من قبل المعاصي، فإن امتنع أتاه من وجه النصيحة حتى يلقيه في بدعة، فإن أبى أمره بالتحرّج والشدّة حتى يحرم ما ليس بحرام، فإن أبى شككه في وضوئه وصلاته حتى يخرجه عن العلم، فإن أبى خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابرًا عفيفًا فتميل قلوبهم إليه فيعجب بنفسه وبه يهلكه، وعند ذلك يشتدّ إلحاحه فإنها آخر درجة ويعلم أنه لو جاوزها أفلت منه إلى الجنة.

بيان سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب في التغير والثبات:

اعلم أن القلب كما ذكرناه تكتنفه الصفات التي ذكرناها وتنصب إليه الآثار والأحوال من الأبواب التي وصفناها، فكأنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب، فإذا أصابه شيء يتأثر به أصابه من جانب آخر ما يضاده فتتغير صفته.

فإن نزل به الشيطان فدعاه إلى الهوى نزل به الملك وصرفه عنه، وإن جذبه شيطان إلى شر جذبه شيطان آخر إلى غيره، وإن جذبه ملك إلى خير جذبه آخر إلى غيره. فتارة يكون متنازعًا بين ملكين، وتارة بين شيطانين، وتارة بين ملك وشيطان، لا يكون قط مهملًا، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠] ولاطلاع رسول الله ﷺ على عجيب صنع الله تعالى في عجائب القلب وتقلبه كان يحلف به فيقول: «لا وَمُقَلِّبِ القُلُوبِ»(٣)، وكان

(١) حديث: أنه ﷺ نظر إلى علم في ثوبه في الصلاة ... الحديث. تقدم.

(٢) حديث: كان في يده خاتم من ذهب فنظر إليه على المنبر فرماه فقال «نظرة إليكم». أخرجه النسائي من حديث ابن عباس وتقدم في الصلاة.

(٣) صحيح: حديث «لا ومقلب القلوب». أخرجه البخاري من حديث ابن عمر [البخاري: ٦٦١٧].

كثيرًا ما يقول: «يا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» قالوا: أو تخاف يا رسول الله؟ قال: «وَمَا يُؤْمِنُنِي وَالقَلْبُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمنِ يُقَلِّبُهُ كَيْفَ يَشَاءُ» (١)، وفي لفظ آخر: «إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ وَإِنَ شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ».

وضرب له ﷺ ثلاثة أمثلة: فقال: «مَثَلُ القَلْبِ مَثَلُ العُصْفُورِ يَتَقَلَّبُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ» (٢)، وقال عليه السلام: «مَثَلُ القَلْبِ فِي تَقَلُّبِهِ كَالقِدْرِ إِذا اسْتَجْمَعَتْ غَلَيَانًا» (٣)، وقال: «مَثَلُ القَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ فِي أَرْضٍ فَلاةٍ تُقَلِّبُها الرِّياحُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ» (٤)، وهذه التقلبات وعجائب صنع الله في تقلبها من حيث لا تهتدي إليه المعرفة لا يعرفها إلا المراقبون والمراعون لأحوالهم مع الله تعالى.

والقلوب في الثبات على الخير والشر والتردد بينهما، ثلاثة:

قلب عمر بالتقوى وزكا بالرياضة وطهر عن خبائث الأخلاق تنقدح فيه خواطر الخير من خزائن الغيب ومداخل الملكوت، فينصرف العقل إلى التفكر فيما خطر له ليعرف دقائق الخير فيه ويطلع على أسرار فوائده فينكشف له بنور البصيرة وجهه، فيحكم بأنه لا بد من فعله فيستحثه عليه ويدعوه إلى العمل به، وينظر الملك إلى القلب فيجده طيبًا في جوهره طاهرًا بتقواه مستنيرًا بضياء العقل معمورًا بأنوار المعرفة فيراه صالحًا لأن يكون له مستقرًا ومهبطًا، فعند ذلك يمدّه بجنود لا ترى ويهديه إلى خيرات أخرى حتى ينجر الخير إلى الخير وكذلك على الدوام، ولا يتناهى إمداده بالترغيب بالخير وتيسير الأمر عليه.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل :٥-٧] وفي مثل هذا القلب يشرق نور المصباح من مشكاة الربوبية حتى لا يخفى فيه الشرك الخفي الذي هو أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء، فلا يخفى على هذا النور خافية ولا يروج عليه شيء من مكائد الشيطان، بل يقف الشيطان ويوحي زخرف القول غرورًا

---

(١) صحيح: حديث «يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك .... الحدث». أخرجه الترمذي من حديث أنس [الترمذي: ٢١٤٠، صحيح الجامع: ٧٩٨٧] وحسنه والحاكم من حديث جابر وقال ابن أبي الدنيا صحيح على شرط مسلم ولمسلم من حديث عبد الله ابن عمرو «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك» [مسلم: ٢٦٥٤] والنسائي في الكبرى وابن ماجه والحاكم وصححه على شرط البخاري ومسلم من حديث النواس بن سمعان «ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه» [ابن ماجه: ١٩٩] والنسائي في الكبرى بإسناد جيد نحوه من حديث عائشة.

(٢) ضعيف: حديث «مثل القلب مثل العصفور يتقلب في كل ساعة». أخرجه الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم والبيهقي في الشعب من حديث أبي عبيدة بن الجراح. قلت رواه البغوي في معجمه من حديث أبي عبيد غير منسوب وقال لا أدري له صحبة أم لا [ضعيف الجامع: ٤١٠٥].

(٣) صحيح: حديث «مثل القلب في تقلبه كالقدر إذا استجمعت غليانا». أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح على شرط البخاري من حديث المقداد بن الأسود [أحمد: ٢٣٣٠٤، وصححه الألباني في السنة: ٢٢٦].

(٤) صحيح: حديث «مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة تقلبها الرياح ظهرا لبطن». أخرجه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من حديث أبي موسى الأشعري بإسناد حسن وللبزار نحوه من حديث أنس بإسناد ضعيف[أحمد: ٢٧٨٥٩، صحيح الجامع: ٢٣٦٥].

فلا يلتفت إليه وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات يصير على القرب معمورًا بالمنجيات، التي سنذكرها، من الشكر والصبر والخوف والرجاء والفقر والزهد والمحبة والرضا والشوق والتوكل والتفكر والمحاسبة وغير ذلك. وهو القلب الذي أقبل الله عز وجل بوجهه عليه، وهو القلب المطمئن المراد بقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨] وبقوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر:٢٧].

القلب الثاني: القلب المخذول المشحون بالهوى، المدنس بالأخلاق المذمومة والخبائث، المفتوح فيه أبواب الشياطين، المسدود عنه أبواب الملائكة. ومبدأ الشر فيه أن ينقدح فيه خاطر من الهوى ويهجس فيه فينظر القلب إلى حاكم العقل ليستفتي منه ويستكشف وجه الصواب فيه، فيكون العقل فيه قد ألف خدمة الهوى وأنس به واستمر على استنباط الحيل له وعلى مساعدة الهوى، فتستولي النفس وتساعد عليه فينشرح الصدر بالهوى وتنبسط فيه ظلماته لانحباس جند العقل عن مدافعته. فيقوى سلطان الشيطان لاتساع مكانه بسبب انتشار الهوى فيقبل عليه بالتزيين والغرور والأماني، ويوحي بذلك زخرفًا من القول غرورًا فيضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد، ويخبو نور اليقين لخوف الآخرة إذ يتصاعد عن الهوى دخان مظلم إلى القلب يملأ جوانبه حتى تنطفئ أنواره، فيصير العقل كالعين التي ملأ الدخان أجفانها فلا يقدر على أن ينظر، وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب حتى لا يبقى للقلب إمكان التوقف والاستبصار، ولو بصره واعظ وأسمعه ما هو الحق فيه عمي عن الفهم، وصمّ عن السمع، وهاجت الشهوة فيه، وسطا الشيطان، وتحركت الجوارح على وفق الهوى فظهرت المعصية إلى عالم الشهادة من عالم الغيب بقضاء من الله تعالى وقدره.

وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣-٤٤] وبقوله عز وجل: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس:٧] وبقوله تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس:١٠] ورب قلب هذا حاله بالإضافة إلى بعض الشهوات كالذي يتورّع عن بعض الأشياء ولكنه إذا رأى وجهًا حسنًا لم يملك عينه وقلبه وطاش عقله وسقط مساك قلبه، أو كالذي لا يملك نفسه فيما فيه الجاه والرئاسة والكبر، ولا يبقى معه مسكة للتثبت عند ظهور أسبابه، أو كالذي لا يملك نفسه عند الغضب مهما استحقر وذكر عيب من عيوبه، أو كالذي لا يملك نفسه عند القدرة على أخذ درهم أو دينار بل يتهالك عليه تهالك الواله المستهتر فينسي فيه المروءة والتقوى، فكل ذلك لتصاعد دخان الهوى إلى القلب حتى يظلم وتنطفئ منه أنواره فينطفئ نور الحياء والمروءة والإيمان ويسعى في تحصيل مراد الشيطان.

القلب الثالث: قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشر فيلحقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير، فتنبعث النفس بشهوتها إلى نصرة خاطر الشر فتقوي الشهوة وتحسن التمتع والتنعم،

فينبعث العقل إلى خاطر الخير ويدفع في وجه الشهوة ويقبح فعلها وينسبها إلى الجهل ويشبهها بالبهيمة والسبع في تهجمها على الشر وقلة اكتراثها بالعواقب فتميل النفس إلى نصح العقل فيحمل الشيطان حملة على العقل فيقوي داعي الهوى ويقول ما هذا التحرّج البارد ولم تمتنع عن هواك فتؤذي نفسك؟ وهل ترى أحدًا من أهل عصرك يخالف هواه أو يترك غرضه؟ أفتترك لهم ملاذ الدنيا يتمتعون بها وتحجر على نفسك حتى تبقى محرومًا شقيًا متعوبًا يضحك عليك أهل الزمان؟ أفتريد أن يزيد منصبك على فلان وفلان وقد فعلوا مثل ما اشتهيت ولم يمتنعوا؟ أما ترى العالم الفلاني ليس يحترز من مثل ذلك ولو كان ذلك شرًا لامتنع منه؟ فتميل النفس إلى الشيطان وتنقلب إليه؟ فيحمل الملك حملة على الشيطان ويقول هل هلك إلا من اتبع لذة الحال ونسي العاقبة؟ أفتقنع بلذة يسيرة وتترك لذة الجنة ونعيمها أبد الآباد؟ أم تستثقل ألم الصبر عن شهوتك ولا تستثقل ألم النار؟ أتغتر بغفلة الناس عن أنفسهم واتّباعهم هواهم ومساعدتهم الشيطان مع أنّ عذاب النار لا يخففه عنك معصية غيرك؟ أرأيت لو كنت في يوم صائف شديد الحر ووقف الناس كلهم في الشمس وكان لك بيت بارد أكنت تساعد الناس أو تطلب لنفسك الخلاص؟ فكيف تخالف الناس خوفًا من حر الشمس ولا تخالفهم خوفًا من حرّ النار؟

فعند ذلك تمتثل النفس إلى قول الملك فلا يزال يتردد بين الجندين متجاذبًا بين الحزبين إلى أن يغلب على القلب ما هو أولى به، فإن كانت الصفات التي في القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية التي ذكرناها غلب الشيطان ومال القلب إلى جنسه من أحزاب الشيطان معرضًا عن حزب الله تعالى وأوليائه، ومساعدًا لحزب الشيطان وأعدائه، وجرى على جوارحه بسابق القدر ما هو سبب بعده عن الله تعالى، وإن كان الأغلب على القلب الصفات الملكية لم يصغ القلب إلى إغواء الشيطان وتحريضه إياه على العاجلة وتهوينه أمر الآخرة، بل مال إلى حزب الله تعالى وظهرت الطاعة بموجب ما سبق من القضاء على جوارحه، فقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ، أي بين تجاذب هذين الجندين وهو الغالب ، أعني التقلب والانتقال من حزب إلى حزب، أما الثبات على الدوام مع حزب الملائكة أو مع حزب الشيطان فنادر من الجانبين وهذه الطاعات والمعاصي تظهر من خزائن الغيب إلى عالم الشهادة بواسطة خزانة القلب فإنه من خزائن الملكوت، وهي أيضًا إذا ظهرت كانت علامات تعرّف أرباب القلوب سابق القضاء. فمن خلق للجنة يسرت له أسباب الطاعات ومن خلق للنار يسرت له أسباب المعاصي وسلط عليه أقران السوء وألقي في قلبه حكم الشيطان، فإنه بأنواع الحكم يغر الحمقى بقوله: إنّ الله رحيم فلا تبال، وإنّ الناس كلهم ما يخافون الله فلا تخالفهم، وإن العمر طويل فاصبر حتى تتوب غدًا: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[النساء: ١٢٠] يعدهم التوبة ويمنيهم المغفرة فيهلكهم بإذن الله تعالى بهذه الحيل وما يجري مجراها، فيوسع قلبه لقبول الغرور ويضيقه عن قبول الحق، وكل ذلك بقضاء من الله وقدر: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى

ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥] ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران:١٦٠] فهو الهادي والمضل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه. خلق الجنة وخلق لها أهلاً فاستعملهم بالطاعة، وخلق النار وخلق لها أهلاً فاستعملهم بالمعاصي. وعرف الخلق علامة أهل الجنة وأهل النار فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣-١٤] ثم قال تعالى فيما روي عن نبيه ﷺ: «هؤلاءِ فِي الجَنَّةِ وَلا أبالي وَهؤلاءِ فِي النَّارَ وَلا أبَالِي» (١)، فتعالى الله الملك الحق لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

ولنقتصر على هذا القدر اليسير من ذكر عجائب القلب فإن استقصاءه لا يليق بعلم المعاملة، وإنما ذكرنا منه ما يحتاج إليه لمعرفة أغوار علوم المعاملة وأسرارها لينتفع بهنا من لا يقنع بالظواهر ولا يجتزئ بالقشر عن اللباب بل يتشوق إلى معرفة دقائق حقائق الأسباب. وفيما ذكرناه كفاية له ومقنع إن شاء الله تعالى والله ولي التوفيق.

تم كتاب عجائب القلب ولله الحمد والمنة. ويتلوه كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق، والحمد لله وحده وصلى الله على كل عبد مصطفى.

* * *

(١) صحيح لغيره: حديث «قال الله عز وجل هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي». أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي وقال ابن عبد البر في الاستيعاب أنه مضطرب الإسناد [أحمد: ٢٦٩٤٢، وصححه الألباني في السنة: ٣٤٧].